

تأليف

امام ائمة الاجتهاد المطلق ، بدر علماء العترة النبوية

محمد بن ابراهيم الوزير

الحسنى اليمنى الصنعانى

مؤلف (إيثار الحق على الخلق) وغيره المتوفى بصنعاء فى ٢٧ المحرم سنة ٨٤٠ هجرية
عن خمس وستين سنة الا خمسة أشهر من مولده
رحمه الله وإيانا والمؤمنين آمين

القاهرة ١٣٤٩

طبع على نفقة بعض علماء آل رسول الله صلى الله عليه

المطبعة السلفية ومكتبتها



سند الكتاب ونبذة من ترجمة مؤلفه

يروي ولي عهد الامامة العظمى باليمن الناصر للدين أحمد ابن أمير المؤمنين أيده الله تعالى كتابَ (البرهان القاطع في اثبات الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع) وسائر مؤلفات السيد الامام محمد بن ابراهيم الوزير التى من أجلّها : (العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم) في أربع مجلدات ضخمة بالقطع الكبير و (الروض الباسم المنتزع من العواصم والقواصم) و (ايثار الحق على الخلق في رد الخلافات الى المذهب الحق) و (ترجيح أساليب القرآن ، لأهل الايمان ، على أساليب اليونان في أصول الأديان . ويبين أن ذلك اجماع الاعيان بأوضح التبيان) و (قبول البشرى بالتيسير لليسرى (و) تنقيح الانظار في علوم الآثار) و (كتاب الامر بالعزلة في آخر الزمان) و (حصر آيات الاحكام الشرعية) و (التفسير النبوي) و (مجمع الحقائق والرقائق) و (التحفة الصفية) و (التأديب الملكوتي) و (كتاب القواعد) و (نصر الاعيان على شر العميان وهو المعري) و (الحسام المشهور) وغير ذلك من مؤلفاته المفيدة . ورسائله العديدة

عن القاضي الحافظ مفتي الأنام عمدة الأعلام (علي بن الحسين المغربي الصنعاني المتوفى سنة ١٣٣٧) والقاضي الحافظ التقي عبد الرحمن بن محمد الحبشي

الشهاري) المتوفى سنة ١٣٤٦ والمولى المجتهد الكبير (سيف الاسلام أحمد بن قاسم ابن عبد الله حميد الدين أبقاه الله تعالى) . و ثلاثتهم يروونها عن (السيد الحافظ عبد الكريم بن عبد الله أبي طالب الحسني الروضي المتوفى سنة ١٣٠٩) وهو يرويها بالسند المتصل في كتابه العقد النضيد في طرق الاسانيد بالمؤلف رحمه الله تعالى

ويرويها أيضاً عن امام السنة القاضي الحسين بن علي العمري عمّره الله تعالى عن السيد الحافظ المؤرخ محمد بن اسماعيل الكبسي الحسني المتوفى سنة ١٣٠٨ عن القاضي الشهير محمد بن علي الشوكاني الصنعاني المتوفى سنة ١٢٥٠ . وهو يرويها بالسند المتصل في كتابه اتحاف الاكابر باسناد الدفاتر بالمؤلف رحمه الله تعالى . وهو المحيط بجميع العلوم الاسلامية من خلفها وامامها ، والحري أن يدعى بحافظها وامامها محمد بن ابراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل بن منصور بن محمد العفيف ابن المفضل بن الحجاج بن علي بن يحيى بن القاسم ابن الامام الداعي الى الله يوسف ابن يحيى المنصور بن احمد الناصر ابن الامام الهادي الى الحق يحيى بن الحسين ابن القاسم بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم

مولده في شهر رجب سنة ٧٧٥ هجرية وأخذ فى علوم العربية والادب عن أخيه السيد الامام الهادي بن ابراهيم الوزير وعن القاضى العلامة محمد بن حمزة ابن مظفر وفى الاصول والفروع وعلم اللطيف عن القاضي العلامه علي بن عبد الله ابن أبي الخير والقاضى العلامة عبد الله بن الحسن الدواري الصعدي وغيرهما وفي التفسير وأصول الفقه عن السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم وأخذ عن السيد العلامة الناصر بن احمد بن الامام المطهر الحسني وعن الشيخ نفيس الدين سليمان بن ابراهيم العلوي التعزي وغيرهم من أكابر علماء عصره بمدينة صنعاء وصعدة وسائر المدن اليمنية . وأخذ بمكة المكرمة عن الشيخ المحدث محمد بن عبد الله ابن ظهيرة والشيخ نجم الدين محمد بن أبي الخير القوصى الشافعي والشيخ زين الدين

محمد بن احمد الطبري والشيخ محمد بن احمد بن ابراهيم المعروف بأبي اليمن الشافعي والشيخ علي بن مسعود بن علي بن عبد المعطي الانصاري المالكي والشيخ المعمر أبي الحسين بن الحسين بن الزين محمد القطب القسطلاني والشيخ علي بن احمد ابن سلامة المكي الشافعي وجار الله بن صالح الشيباني والشريف احمد بن علي الحسنى الشهير بالفاسى واستجاز منهم ومن غيرهم من علماء اليمن والحرمين ومن أجلّ تلامذته السيد محمد بن عبد الله بن الهادي الوزير والامام الناصر صلاح الدين محمد بن علي وعبد الله بن محمد بن المطهر وعبد الله بن محمد بن سليمان الحزي وغيرهم . وقد ترجمه القاضي الحافظ أحمد بن صالح بن أبي الرجال فى مطالع البدور والسيد الحافظ ابراهيم بن القاسم بن المؤيد الحسنى الشهاري فى طبقات رواة الفقه والآثار تراجم مطولة وترجمه أيضاً القاضى الشهير محمد بن على الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة منها ما نصه :

هو الامام الكبير المجتهد المطلق المعروف بابن الوزير تبحر في جميع العلوم وفاق الاقران واشتهر صيته وبعد ذكره وطار علمه في الأقطار وترجم له السخاوى وترجم له التقي ابن فهد في معجمه وترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني في أنبائه في ترجمة أخيه الهادي

ولا ريب أن علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له الآ مجرد التقليد لمن لم يطلع على الأحوال فان في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عدداً يجاوز الوصف يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديثية وما يلتحق بها من دواوين الاسلام المشتملة على سنة سيد الأنام ولا يرفعون الى التقليد رأسا ولا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله مع كثرة اشتغالهم بالعلوم التى هى آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف

وبيان وأصول ولغة وعدم اخلالهم بما عدا ذلك من العلوم العقلية

وبالجملة فصاحب الترجمة ممن يقصر القلم عن التعريف بحاله وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الاربعة فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم ويضايق أئمة الاشعرية والمعتزلة في مقالاتهم ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتبرين مع احاطته بحفظ غالب المتون ومعرفة رجال الأسانيد شخصا وحالا وزمانا ومكانا وتبحره في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف . ومن رام أن يعرف حاله ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته فانها شاهد عدل على علوّ طبقته ، وهو اذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر بعده الى النظر في غيره من أي علم كانت. وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غيره كائناً من كان ، وديوان شعره في مجلد ثم انجمع وأقبل على العبادة وتوحش في الفلوات وانقطع عن الناس وأذاق حلاوة العبادة وطعم لذة الانقطاع الى جناب الحق فصغر في عينيه ما سوى ذلك ..الخ كلام الشوكاني

وكان صاحب الترجمة رحمه الله يتكدر من قول بعض حسدته انه يخالف أسلافه من أهل البيت عليهم السلام وينحب عن نفسه بمثل قوله في قصيدة له :

ديني كأهل البيت ديناً قيّماً	متنزهاً عن كل معتقدٍ ردي
ويشك فيّ ذوو الجهالة والعمى	والشمس لا تبدو لعين الارمد
اني أحبّ محمداً فوق الورى	وبه كما فعل الاوائل اقتدي
وأحب آل محمد نفسي الفدا	لهمُ فما أحد كآل محمد
هم باب حطة والسفينة والهدى	فيهم وهم للظالمين بمرصدِ
وهمُ النجوم لخير متعبدٍ	وهم الرجوم لكل مَن لم يَعبُد
وهمُ الامان لكل من تحت السما	وجزاء أحمد وُدهم فتودد
والقوم والقرآن فاعرف قدرهم	ثقلان للثقلين نصّ محمد

وكفى لهم شرفاً ومجداً باذخاً شرع الصلاة لهم بكل تشهد

ولهم فضائل لست أحصي عدّها من رام عدّ الشهب لم تتعدد

سنّوا متابعة النبيّ ولم يكن لهمُ غرامٌ بالمذاهب عن يد

الخ . ومات بصنعاء اليمن في يوم ٢٧ المحرم من سنة ٨٤٠ هجريه عن خمس وستين سنة الاّ خمسة أشهر وقبره بقرب مسجد فروة بن مسيك شمالىّ مدينة صنعاء رحمه الله تعالى

لخص هذه الترجمة بالقاهرة في رمضان سنة ١٣٤٩ محمد بن محمد بن يحيى زبارة الحسنى اليمنى غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين آمين



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده

﴿ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله ، وعلى سائر عباده الصالحين ﴾

هذا تنبيه معروف فى الغرائز العقلية ، غريب فى العوائد العرفية . فيه أنور برهان على اثبات صانع العالم ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، واثبات المعاد الاخروى ، وكل ما جاءت به الرسل الكرام ، عليهم أفضل الصلاة والسلام

اعلم أن من أنصف من نفسه ، واستنار بمصباح فكره ، واستدام النظر بمحض عقله ، علم أن مائة الف ونيفاً وعشرين الفاً من لفيف السوقة ورعاع الخليقة وعُماة الابصار وضُلاّل العقول ، وسفهاء الحلوم ، وخفاف الوقار وطُياش الناس لو تفرقت أوطانهم وأنسابهم وأغراضهم وأزمانهم ومذاهبهم ، ولم يكونوا من أهل الانظار ، ولا الرياضات الفلسفية ، ولا من أرباب القوانين المنطقية ، ولا عرفوا دروس هذه العلوم ، ولا تلمذوا لشيوخ هذه الفنون . ثم اتفقوا على القطع بصحة أمر لا مجال للعقول فى معرفته كالشرعيات المحضة أو عقلى نظرى كاثبات صانع العالم ، بحيث لو اجتمع عيون النظار وعلماء الاقطار على واحد منهم يشككون عليه فى اعتقاده ،

ويدخلون دقائق الشبه فى ضميره لما رفع اليهم رأساً ولا التفت الى قولهم أصلا ، لعلمنا علماً عادياً أنهم ما تواطؤا على التعمد للمباهتة والتجرى على المغالطة . وانه ما جمع متفرقات أنظارهم وألف نوافر طباعهم ، وربط بين جوانح مختلفات اختياراتهم ، وعصمهم عن متابعة المنفرات والقادحات فى شريف حالهم وعزيز مقامهم الا صدق ما ادعوه من علمهم باستناد هذا العالم الى رب عظيم ومدبر حكيم . واضطرار المعجزات والقرائن لهم الى علم ذلك الثبات الذى لا يمكن رفعه وزواله . وحينئذ لا تلجلج العقول ، ولا تردد الألباب ، ولا تبلّد الأذهان ، ولا تحير الافهام ، ولا توقّف الانظار عن الجزم على صدقهم . وثلج الصدور بصحة معتقدهم ، ويحصل فى النفوس من برد اليقين بقولهم ، والطمأنينة بصدقهم ، ما يلحق بالمتواترات والمشاهدات ، ويربى على كثير من المحسوسات . فكيف اذا انضم الى مثل هؤلاء الجمع المتكاثر المقدر بمائة الف ونيف وعشرين الفاً قرائن جمة ومخايل كثيرة . دالةٌ منهم على الصدق ، شاهدة لهم بالحق . كالقرائن الشاهدة على صدق الأنبياء عليهم السلام عادةً لا تواتراً ، وهى كثيرة جداً فائتة للعد والاحصاء .ونحن نذكر منها اليسير والله ولى التوفيق:

فأولها أنهم من أعدل الناس طريقة وأصدقهم لهجة وأ كثرهم وقاراً وأقلهم طيشاً . وأزهدهم فى المال والجاه ، وأرفضهم لحب الدعة والراحة . قد خبروا على طول الزمن ، واشتدت عليهم المحن ، واعتورت أحوالهم طوارق الفتن ، وتفاقم فى النكاية لهم كيد ذوى الاحن . فما لينت الشدائد منهم صلباً ، ولا فترت المكايد لهم عزما بل كانوا كسبيكة الذهب وفلذة الياقوت . كلما ازدادت النار لها أ كلاً ازدادت على طول السبك حسناً ،

لا جافوا فى حكم على عدو ، ولا شهدوا بغير الحق لصديق . قام نوح عليه السلام الف سنة الا خمسين عاما بين ظهرانى قومه وعشيرته ، وحماته من العدو وملاذه . فنابذهم وجانبهم وضللهم وكفّرهم ، حتى كانوا يضربونه ويهينونه ويؤذونه بأنواع الاذى ويفتنونه ، ولا يحصل له بذلك غرض دنيوى ولا مقصد عاجل ، ولا له فى ذلك هوى ولا شهوة . وهذا محمد صلى اللهِ عليه واله وسلم عرَضت عليه قريش المال والزوجة والجاه والرياسة ويترك ما يدّعيه من تسفيه حلوم آبائه ؛ وتعنيف الاحياء والميتين من عشيرته . فلم يرفع الى كلامهم رأساً ، ولم يلتفت الى مقالتهم أصلا . وما أحسن البيت المشهور :

وراودته الجبال الشم من ذهب   عن نفسه فأراها أيما شمم

وكم عسى أن نذكر من فضائل لا تحصى ، ومحاسن لا تستقصى

وثانيها معاداتهم لقراباتهم ، وارحامهم الذين جبلت الطباع على محبتهم ، وعلى رجاء الاستنصار لهم بحيث تركوا مناهجا بآئهم التى ولع الطبع باتباعها وعادوا عشيرتهم التى يتقى من كل عدو بحاماتها ولقوا فى الصبر عنهم الحتوف ووقعوا فى الدنيا لذلك فى أعظم مخوف هذا نوح عليه السلام ترك ابنه وفلذة كبده وماء سواد عينه وريحانة فؤاده يغرق مع الغرقى واستغفر من دعائه ان لا يهلك مع الهلكى ، وهذا ابراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه لما تبين له انه عدو لله وعزم على ذبح ولده الذى هو قرة عينه ومزنة غيثه وأحب الناس اليه ، واعزهم عليه ، وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذى شهد العدو والصديق بانه أبرّ الخلق بعامة أمته دع عنك خاصة رحامته ، حتى ان الله عاتبه على كثرة رحمته فقال «فلا تذهب نفسك عليهم حسرات»

ترك الثناء على أمه وأبيه والذكر لهما والترحم عليهما ولم يذكر النجاشى وصلى عليه واثنى على سلمان الفارسى واهدى ثمرات الدعاء الجميل اليه وأمثالهما ممن لم يلتصق عرقه بعرقه ، ولم يلتحم نجره بنجره . وقد أجمع الاصدقاء والاعداء والكفرة والبررة على ان الانبياء عليهم السلام كانوا أعقل الناس ، وأوقر الخلق ، اما المسلمون فعقائدهم فيهم ظاهرة ، وأما الكفار فيقولون انهم بحسن تدبيرهم ولطف دهائهم شرعوا شرائع ، واستمالوا خلائق ، ودان لهم من الناس عوالم ، فكيف ترى هؤلاء العقلاء الحذاق يعادون أرحامهم ويصادقون من لم تتصل وشيجة نسب بينه وبينهم ، ويتركون مافى موالاة العشيرة من الانتصار عند الهضم ، والسلامة من الظلم ، ويتحملون مضارّ عداوتهم ، عوضا عن منافع ولايتهم ، لغير غرض يعود عليهم ، ولا فائدة ترجع اليهم

وثالثها انهم فقراء مساكين تقتحمهم العيون وتزدريهم القلوب ولا يغلب فى ظن عاقل ولا فراسة حاذق . أن مَن الفقرُ صفته والنزاع لجميع من فى العالم طلبته يساعد على اثارة الفتن وتهييج الحروب بين البشر ، ولا يبلغ الى أمل ، ولا يزكو له عمل ، كموسى وهرون حين اتيا فرعون لابسَيْن لِعَبا الصوف ومرقعات المسوح منتقلين من مراعى الغنم الى معارضات الملوك ، مظهرين لمخاشنتهم ، مفصحين بالترفع عليهم بغير عُدّة ولا مال ، ولا قوة ولا رجال ، فاتياه على هذه الحالة التى لا يؤبه لصاحبها ولا تمتلىء عين من النظر الى من جاء عليها ، وجواهر التيجان تلتمع على جبينه وانطاع ضرب الاعناق معدة لمن أغضبه عن شماله ويمينه ، فاتياه بأعظم ما يوجب ضرب أعناقهما ، وأكبر ما يجرئه على قتلهما ، لا ترتعد

لهما فريصة ، ولا يخافان من الدنيا نقيصة * وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء الى قريش ، وقام فى جاهلية العرب ، وانوفهم تعطس بالكبر ، وألسنتهم لا تنطق الا بالفخر يرون ان يبيد أولهم وآخرهم ويفنى أصاغرهم وأكابرهم على ايسر عار يلمّ بساحاتهم ، وأهون نقص يدنو من أنسابهم ، فجاء وحيداً من الناصر فقيراً من المال يسب آلهتهم ، ويلهب أفئدتهم ، ويسفه أحلامهم . يتيم قد مات أبواه واسترضع فى غير قومه وكفله من شدة فقر أبيه عمه ، فبينما هو يتيم مكفول فى حجر من هبّ نخوه مهب الجنوب والقبول ، اذ قام يعيب على كافله دينه ويسفه رأيه ، ولا يستريب من شجعان العرب المشاهير أن عارضهم جميعاً ، وانفرد بعداوتهم وحيداً ورابعهاحصول أغراضهم كما قال تعالى « والعاقبة للمتقين» «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » وكما ثبت فى البخارى من حديث ابن عباس « الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة» وكذلك وقع ولله الحمد فان احداً ممن طلب الدنيا والراحة والملك والرياسة من الفلاسفة والمنجمين والمشعوذين والمرجمين بل من أهل الاموال والعشائر ، وأرباب الخدم والعساكر من ملوك حمير والتبابعة والقياصرة والاكاسرة ما بلغ من ملك محمد صلى الله عليه وآله وسلم المعشار ، ولا استدام له بعد موته ما استدام لمحمد صلى الله عليه وآله من ملك الاقطار والاستيلاء على البوادى والامصار * وهذا نوح عليه السلام الفقير الضعيف القليل الناصر ، الذى كان يُضرب ويُشتم ويسب ويُهان فلا يجد ملجأ ولا معاذاً ولا منقذاً ولا مجيراً نبعت له الارضون عيوناً والسموات غيوناً حتى كان من عجيب غرق قومه ما كان . ولم يستطع دفع ما جاء به أنس ولا جان . ومن أدل ذلك على الله الخسف بأهل السبت من اليهود

قردة . وذلك مما يحصل به العلم الضرورى لمن شاهده أو تواتر له ، لأن تحول الصورة الى صورة اخرى لا يكون بالطبع ، ولا تدخل فيه شبهة لأهل الكفر

وخامسها زهدهم فى الدنيا واطراحهم للاهوى وقلقهم من هول المعاد الاخروى . وتقطع نياط قلوبهم من الخوف للعذاب السرمدى .وهو شئ عُلم منهم أنه جد لا مزاح فيه ولا هزل وحق لا تَصَنُّع فيه ولا تكلّف . وكيف والتكلف لا تخفى آثاره ، ولا تستمر لصاحبه أحواله . زفراتهم كانت متصعدة ، ونيار خوفهم لم تزل متوقدة ، ومدامع عيونهم لم تبرح مترقرقة ، وعلى وجنات خدودهم متدفقة ، وعيونهم غائرة ، وعزماتهم باترة ، وأجسادهم ناحلة ، ونفوسهم عن الدنيا مائلة ، وشفاههم من ظمأ الهواجر ذابلة ، وألسنة أحوالهم فى خطاب مولاهم قائلة :

وقد صمت عن لذات نفسى كلها ويوم لقاكم ذاك فطر صيامى

كان عيسى عليه السلام دابته رجلاه ، وسراجه القمر ، وفراشه المدر ومتاعه الشجر ، وداره الارض . ترى خضرة الشجر من شفيف بطنه . ولا تنقض الشدائد عُقدة عزمه . وكان محمد صلى الله عليه وآله وسلم يصلى حتى تورمت قدماه ويُسمع لصدره أزيز كأزيز المرْجَل ، فقيل له : أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال « أفلا أكون عبداً شكوراً » ولما اخطأ داود عليه السلام كان يبكى وينوح حتى نبت العشب من دمعه المسفوح ، ونقش خطيئته على كفه وحزن حزن الثكلى على ذنبه . فليت شعرى أى غرض يقدّر أنه يحصل لهم ويظنُّ أنه أرَبُهم حتى قطعوا أعمارهم على هذه الطريقة ، وأداموا تحمُّلهم لهذه الاعباء الثقيلة

أطلب العيش فى الدنيا ورجاء الظفر بالاهوا ، فقد عاش سقط الناس بأيسر من ذلك ونيلت بأهون سعى ملاذ المعايش ، وقد ملكوها على ما يأتى بيانه فلم يلتفتوا اليها ، ورغبوا عنها ولم يرغبوا فيها . وتنزهت عنها شرائف أحوالهم . وأنشد لسان حالهم :

تجرد عن الدنيا فانك انما خرجت الى الدنيا وأنت مجرد

وسادسها أن جمعاً منهم تمكنوا من الدنيا واستولوا على ما يحب الناس منها فلم تتغير لهم طريقة ، ولم تتحول لهم سجية . ملك سليمان عليه السلام ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فخدمته الطير وحشرت معه ، وحملته الريح على متن الهواء وسخرت له ، ودانت له ملوك الانس ؛ وخضعت له عفاريت الجن ؛ وكان البساط يحمله فى أرجاء الاجواء مستقراً على متن الريح الخفاقة والهواء . وكانت الطير تظله ؛ وكانت الارض فى يده وكانت أوامره مطاعة ، والخلائق له طاعة . ومع ذلك كان يأكل من كد يده ؛ ويتواضع على عظيم ملكه حتى اختار من الحرف أهضمها للنفس وأقمعها لجامح الهوى وهو الخوص أى الحصر الذى يترفع عنه أكثر السوقة ولا يرتضيه لنفسه من له أدنى عزة . فما تراه يريد بهذا والى أى شىء من الدنيا يتوصل به

وسابعها قوة يقينهم بمواعيد الله وتسليمهم نفوسهم لما أمر الله وان كان فى ظاهره كالجناية على النفس ، والالقاء بها الى التهلكة كقول نوح وحده لقومه مع كثرتهم وقوتهم «ثم اقضوا الىّ ولا تنظرون» ونحو ذلك قال هود . ومن ذلك القاء ام موسى له فى البحر وهو طفل ، ومنه نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاصحابه عن حراسته بعد قوله تعالى

« والله يعصمك من الناس »

وثامنها انها ظهرت عليهم خوارق العادات وبواهر المعجزات من غير ممارسة لشيء من علوم الطبائعيين والمرتاضين ، والمتفلسفين والمنجمين والمتكهنين المصاحبين للجن والشياطين واخبروا عن الغيوب واتصلوا فى خرق العادات الى مرتبة قصر عنها أهل الدراية فى فنون هذه العلوم ، هذا الكليم فعل مع السحرة ما فعل حتى كانوا هم المقرين له ، والشاهدين بأن الحق معه . وهم ألوف يحصل بخبرهم العلم ، ويستحيل تواطؤهم على الكذب وكيف وسيف فرعون على أعناقهم مسلول ، ودفع كيده بسوى الله غير مأمول . وهذا عيسى عليه السلام أحيي الموتى وابرأ الاكمه والابرص ، وهذا محمد صلى الله عليه وآله وسلم جاء بنوع من الاعجاز لا يتصور فيه السحر ولا تعقل فيه التعمية قرآن بلى قشيب الدهر واعجازه جديد، وهرم شباب الزمان ورونقه الى مزيد ، فاسكت به مصاقعة العرب العرباء ، والمفلقين من البلغاء والفصحاء والشعراء والخطباء ، قد مضى الآن احدى وثماني مائة سنة ولم يأت له فيها معارض . على ان هذه المدة الطويلة منذ هاجر صلى الله عليه وآله وسلم مرت على سحرة الكتابة والخطابة وتقضت عن مهرة البراعة واليراعة أساة أساليب الكلام اذا اعتل وبناة أساسات البيان اذا اختل

يرمون بالخطب الطوال وتارة * وحي الملاحظ خيفة الرقباء

كان واصل بن عطا يتجنب فى كلامه الراء ، ولا يتبلد فى محافل الكبراء قيل له كيف تقول ركب فرسه وجر رمحه وأمر الأمير بحفر بئر على قارعة الطريق فقال على البديهة : أقول اعتلى جواده وسحب ذابله وأوجب الخليفة

تقب قليب على الجادة . وفيه يقول بعضهم :

ويجعل البر قمحا فى تصرفه وخالف الراء حتى احتال فى الشعر
ولم يطق مطرا والقول يعجله فعـاد بالغيث اشفاقا من المطر

وخطب واصل خطبة طويلة على البديهة لم ينطق فيها بالراء فى محفل عظيم عند بعض الا كابر وقد قامت الخطباء فقال فيه بشار :

تكلف القول والاقوام قد خطبوا وحبّروا خطبا ناهيك من خطب
فقـــام مرتجلا تغلى بديهته كمرجل القين لما حف باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحدٌ قبل التصفح والاغراق فى الخطب

وكان الجاحظ بليغاً فى الفصاحة حتى كان يقال من دليل اعجاز القرآن ايمـان الجاحظ به وقام سحبان يخطب فى حضرة معاوية من عقيب صلاة الفجر الى أن دخل وقت الظهر فى معنى واحد لم يخرج الى غيره ولا تنحنح ولا تلـكأ ولا تأمل ولا تروى فلما أقيمت الصلاة قال له معوية الصلاة الصلاة فقـال وهل نحن الا فى تسبيح وتقديس وتمجيد وتحميد وتعظيم وسرد شيئاً كثيراً على هذا الاسلوب فقال له معاوية انت أخطب العرب فقال بل أخطب الجن والانس ثم أنشده :

لقد علمت عليا معدٍّ بأنني اذا قلت أما بعد أني خطيبها

فانظر كيف تقضت السنىُّ والأعوام ، وتصرمت الليالى والايام . ولم يأت أحد من هؤلاء البلغاء بمثل هذا القرآن ، ولا بسورة من مثله . تصديقاً لما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم من قوله عز سلطانه « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »

وتاسعها أن أصل جميع البشر وهو آدم عليه السلام أول من ادعى هذه الدعوى وسلك هذه السبيل ولا حاجة له الى الكذب والتزوير ؛ اذ لا أحد معه فيحتال عليه ويخدعه ليأخذ مما لديه ، الا من هو طوعه وفرعه ومُمده ومتبعه . وقد روى الزمخشرى عن ابن عباس : أن الخلق كانوا أمة واحدة على الحق لا اختلاف بينهم عشرة قرون من بعد آدم عليه السلام الى وقت نوح عليه السلام ذكره فى تفسير قوله « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين » وذكر وجهاً آخر وأشار الى ضعفه

وعاشرها عدم اختلافهم مع أن الذى أخبروا به أمر غير مشاهد لهم بل أمر تحير فيه الفطناء ، وتبلد فيه الأذكياء ، وخبطت العقول فيه خبط عشواء ، وطلبت تحقيقه فلم ترجع بطائل جدوى . ألا ترى أن الفلاسفة اختلفوا أشد الاختلاف على ما حققه الجاحظ فى كتاب العبر والاعتبار وغيره من أكابر علماء الاسلام . وهؤلاء الانبياء عليهم السلام ما كانوا من أهل الانظار الفلسفية ، ولا أرباب الهندسات الخفية . ولا مخالطين لأصحاب الدروس المنطقية ، ولا ملتفتين الى المؤاخذات الجدلية بل سالكين مسلك المتعبدين من العامة . ثم أتى كل واحد منهم فى العلوم الالهيات بعقائد اليها مرجع كل متكلم ، وقصارى نظر كل فيلسوف ، ومنتهى كل مدقق . خائضين من اللطائف الالهية ، والصفات القدسية ، والاحكام الازلية ، فى بحار تقف الحكماء شاخصة على سواحلها ومحارات لا تعرف مقل العقول ماهياتها

وحادى عشرها أن من سلك طريقهم ، وقبل نصيحتهم ، وصبر صبرهم ظهر عليه من الكرامات قريب مما ظهر عليهم : بل ربما ظهر على بعض

الاولياء مثل معجزات الانبياء كمريم عليها السلام فى حملها وطعامها وظهور الملك لها ورطب نخلها، وأصحاب الكهف فى منامهم وتغير عادات الدهر فى صحة أجسادهم . ومثل ما تواتر معناه عن رهبانية الامم الخالية والصالحين من هذه الامة المرحومة ظهوراً لا يحتاج الى اقامة البرهان ولا يفتقر الى ايضاح وبيان

وثانى عشرها عجز من عاصرهم عن اظهار كذبة واحدة لواحد منهم فى جميع عمره من جميع الامور التى ادعاها ، هذا وان أكثر الشواهد لهم أنهم ادعوا أمراً تشهد بصدقهم فيه أنواع المخلوقات ، وتفصح بالاحتجاج لهم بدائع المصنوعات : من سماء مرفوعة ، وأرض موضوعة ، ونجوم فى مقدرات منازلها سيارة ، وعلى محكمات أفلاكها طوارة ، زينة تجتليها أعين المستعبرين ، ومصابيح توهج أنوارها للمتفكرين . منها ثواقب ونوابت ومعالم وروجم ، وأقمار نوارة ، وبحار موارة ، وأرواح خفاقة ، وأمواه دفاقة ، وسحاب ثقال مطارة ، وعيون سيالة وقطارة ، وأجزاء متفقة ، وأنهار مترقرقة ، وأودية غير منسدة المخارق ، نافذة من المغارب الى المشارق . وحيوانات حساسة ، منها فى الاجواء طيارة ، ومنها على الارضين سيارة . ومنها امم مكلفة ، ومنها عوالم مسخرة ، وأرزاق مقدرة وأشجار وثمرة وفواكه ومزارع ، ومضار ومنافع ، ورسل فى خلال ذلك تترى ، وكتب منزلة لاتزال تقرا ، وعبر وغير ، ونقم ونعم ، وخلق منهم ضاحك وباكى ، ومغبوط بالنعمة وشاكى ، ومهنأ ومعزى ، ومعافى ومرزى . ومحسود ومرحوم ، وظالم ومظلوم . هذا والموت يأخذهم جيلا جيلا ، والدهر يبليهم قليلا قليلا ، يفرق بين الخليل وخليله ، ويستخرج

الانسان من بين قبيله ، فكل حى فهو غداً ميّت . فما أحسن البيت :

وكل أليف فاقد لأليفه ومعترفٌ بالبين حتى البهائم

وأحسن منه قول العلامة الزمخشرى رحمه الله :

وجدتك من مسّ الفراق فَروقة وكل فريق معرض لشتات

فراقان للاحباب لابد منهما فراق بعاد أو فراق ممات

ومن أراد استقصاء اليسير من عجائب صنع الله التى تحيرت فى أقلها نهايات علوم العلماء ، وتبلدت فى أصغرها أذهان الاذكياء ، فعليه بمطالعة كتاب العبر والاعتبار للجاحظ وكتاب الطب الكبير للفخر الرازى . فسبحانك اللهم ماأعظم ما نرى من خلقك ، وما أصغره فى جنب قدرتك وما أهول ما نشاهد من سلطانك ، وما أحقر ذلك فى جنب ما غاب عنا من ملكوتك . ما أصدق ما قلت فى كتابك ، وأحق ما وصفت فى كلامك ، حيث قلت يارب العالمين ، وأنت أصدق القائلين « ولو أن مافى الارض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم »

واعلم انا لما ذكرنا أن قرائن أحوال الانبياء عليهم السلام تقضى بصدقهم وتضطر العقول الى الجزم بصحة أديانهم ، مجملين غير مفصلين مشيرين الى الجمل اليسيرة غير مستقصين . أردنا أن نذكر من تفاصيل أحوال نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم نكتاً يسيرة منتزعات من مصنفات كثيرة حتى يعرف أن لكل واحد من الانبياء ما يساويها أو يدانيها وانه قد ظهر على كل واحد منهم من القرائن ما يعلم أهل وقته بها أنه صادق ، ولا حوال السحرة وأهل التمويه مفارق ، حتى تقوم بها عليهم

الحجة . فتأمل ذلك ينشرح صدرك وتزداد بصيرتك وترسخ عقيدتك .
ولنكتف فى ذلك بما أورده فخر الدين الرازى فى كتابه الاربعين فى أصول الدين وهو قوله : واعلم أن الرسول عليه السلام كانت له معجزات كثيرة سوى القرآن ، والعلماء أوردوا فى ذكرها كتباً وضبطُ القول فيها أن نقول معجزاته عليه السلام قسمان حسية وعقلية . أما الحسية فثلاثة أقسام : أحدها أمور خارجة عن ذاته . وثانيها أمور فى ذاته . وثالثها أمور فى صفاته :

أما القسم الاول وهو الاشياء الخارجة عن ذاته فهو كانشقاق القمر واجتذاب الشجر اليه ، وتسليم الحجر عليه ونبوع الماء من بين أصابعه ، واشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، وحنين الجذع ، وشكاية الناقة وشهادة الشاة المشوية . واظلال السحاب قبل بعثته ، وما كان من حال أبى جهل وصخرته حين أراد أن يضربها على رأسه ، وما كان من شاة أم معبد حين مسح يده على ضرعها

وأما القسم الثانى وهو الاحوال العائدة الى ذاته فهو مثل النور الذى كان ينتقل من أب فأب الى أن خرج الى الدنيا ، وما كان من الخاتم ، وما شوهد من خلقته وصورته التى يحكم علم الفراسة بأنها دالة على نبوته

وأما القسم الثالث وهو ما يتعلق بصفاته فهى كثيرة ونحن نشير الى بعضها :

فالاول أن أحداً ما سمع منه لا فى مهمات الدين ولا فى مهمات الدنيا كذبا البتة ولو صدر عنه الكذب مرة واحدة لاجتهد أعداؤه فى تشهيره واظهاره

الثانى أنه ما أقدم على فعل قبيح لا قبل النبوة ولا بعدها

الثالث أنه لم يفرّ عن أحد من أعدائه لا قبل النبوة ولا بعدها وان عظم الخوف مثل يوم أُحد ويوم الاحزاب. وهذا يدل على أنه كان قوى القلب بمواعيد الله حيث قال تعالى « والله يعصمك من الناس » وقال تعالى « حسبك الله » وقال تعالى « إلاّ تنصروه فقد نصره الله »

الرابع أنه كان عظيم الشفقة والرحمة على أمته قال تعالى « فلا تذهبْ نفسك عليهم حسرات » وقال تعالى « فلعلك باخع نفسك » وقال تعالى « ولا تحزن عليهم » وقال تعالى « عزيز عليه ما عنتم »

الخامس أنه عليه السلام كان فى أعظم الدرجات فى السخاوة حتى أنه تعالى عاتبه عليها فقال « ولا تبسطها كل البسط »

السادس أنه ما كان للدنيا فى قلبه وقع وان قريشاً عرضوا عليه المال والزوجة والرياسة حتى يترك هذه الدعوى فلم يلتفت اليهم

السابع أنه كان فى غاية الفصاحة ، كما قال « أُوتيتُ جوامع الكلم »

الثامن أنه بقى على طريقته المرضية فى أول عمره الى آخره والكذاب المزوّر لا يمكنه ذلك واليه الاشارة بقوله تعالى « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين »

التاسع أنه كان صلى الله عليه وآله وسلم مع أهل الدنيا والثروة فى غاية الترفع ومع الفقراء والمساكين وأهل الدين فى غاية التواضع

العاشر أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان فى كل واحدة من هذه الصفات والاخلاق فى الغاية القصوى من الكمال ، كان مستجمعاً لها

بأسرها ولم يتفق ذلك لاحد من الخلق فكان اجتماعها فى ذاته من أعظم المعجزات

وأما المعجزات العقلية فهى ستة أنواع :

النوع الاول أنه صلى الله عليه وآله وسلم انما ظهر من قبيلة ما كانوا من أهل العلم بل كان من بلدة ما كان فيها أحد من العلماء بل كانت الجهالة غالبة عليهم ، ولم يتفق له سفر من تلك البلدة الا مرتين الى الشام وكانت مدة تلك المسافرة قليلة ولم يذهب أحد من العلماء والحكماء الى تلك البلدة حتى يقال انه صلى الله عليه وآله وسلم تعلم العلم من ذلك الحكيم ، واذا خرج من مثل هذه البلدة ومثل هذه القبيلة انسان من غير أن يمارس شيئاً من العلوم ولا تلمذ لاحد من العلماء البتّة ثم بلغ فى معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله وأحكامه هذا المبلغ العظيم الذى عجز جميع الاذكياء من العقلاء عن القرب منه بل أقرّ الكل بأنه لا يمكن أن يُزاد فى تقرير الدلائل على ما ورد فى القرآن ، ثم ذكر قصص الاولين وتواريخ المتقدمين بحيث لم يتمكن أحد من الأعداء أن يقول انه أخطأ فى شيء منها ، بل بلغ كلامه فى البعد عن الريب والشك الى أن قال عند مجادلتهم إياهُ « قل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » وقال تعالى « ذلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك » ولم يقدر أحدٌ أن يقول انه طالع كتابا ولا تلمذ لاستاذ وكانت هذه الاحوال ظاهرة معلومة للاصدقاء والاعداء على ماقال تعالى « أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون » وقال تعالى «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون»

وقال « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » وكل من له عقل سليم وطبع مستقيم علم أن هذه الاحوال لا تتيسر الا بالتعليم الالهى والهداية الربانية

النوع الثانى أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان قبل اظهار دعواه الرسالة والنبوة ما كان يشرع فى هذه المسائل الالهية وما كان يبحث عنها وما جرى على لسانه قط حديث النبوة والرسالة . والذى يدل على صحة قولنا أنه لو اتفق له شروع فى هذه المطالب والمباحث قبل اظهار ادعاء النبوة لقال الكفار له انك أفنيت عمرك فى التدبر والتأمل وتحصيل هذه الكلمات حتى قدرت الآن على اظهارها ، ولما لم يذكر هذا الكلام أحد من الاعداء مع شدة حرصهم على الطعن فيه وفى نبوته علمنا أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما كان شارعاً قبل اظهار النبوة فى شىء من هذه العلوم ومعلوم أن من انقضى من عمره أربعون سنة ولم يخض فى شىء من هذه المطالب العلمية ثم انه خاض فيها دفعة واحدة وأتى بكلام عجز الأولون والآخرون عن معارضته بل قد انقضى الآن قريب من ستمائة سنة[1] وما جاء أحد يمكنه اقامة المعارضة فصريح العقل يشهد بأن هذا لا يكون إلا على سبيل الوحى والتنزيل (قال مولانا رحمه الله) وقد رأيت أن أثبت ها هنا زيادة لائقة بهذا المكان كنت قد علقتها فى هذا المعنى قبل الوقوف على كلام الرازى فلما وقفت على كلامه رأيت الصاقها به فى غاية الملاءمة وانضمامها اليه فى نهاية المناسبة وهى هذه : اعلم أن العلم بالتفرقة بين المعجز والسحر لا يتم الا لمن علم ماهية السحر ، وذلك لأن هذا الفرق الذى يُفرق به بينهما

(١) تاريخ تأليف الامام الرازي لكتاب الاربعين في أصول الدين

ليس الا وصفا ثابتا لاحدهما وغير ثابت للآخر فان كان ثابتاً للسحر منتفياً عن المعجز مثل قولهم : ان السحر يدرك بالتعلم والمعجز لا يدرك به فلا كلام أن من لم يعرف السحر لا يمكنه العلم بأنه يدرك بالتعلم بل يجوز أنه لو تعلمه ما علمه وانه انما يحصل بفعل الله ، سلمنا ذلك لكن اذا رأى المعجز فمن أين أنه ليس من السحر الذى يمكن تعلمه ، لايقال يطلب تعلمه فان لم يحسن علم أنه معجز ، لانا نقول هو لا يحسن تعلمه الا من ناصح له فى التعليم محب لافادته ، وقلّ ما يوجد من السحرة من يعلم السحر أحدا الا أن يكون ولداً له أو من منزلته عنده فى المحبة منزلة الولد ، وان كان الوصف الفارق بين المعجز والسحر ثابتاً للمعجز منفياً عن السحر فذلك أجلى فى أن العاقل لا يمكنه أن ينفى وصفاً عن شىء وهو لا يعرف ذلك الشىء . وقد ذكر الرازى رحمه الله أن الله سبحانه وتعالى أرسل الملكين هاروت وماروت يعلمان الناس السحر ليفرقوا بينه وبين المعجز وليعرفوا أنه تعمية لا حقيقة لها حتى ينقضوه وفى هذا أنهم ما كانوا قبل الملكين متمكنين من معرفته الا بتعليم السحرة لهم إياه . اذا ثبت هذا فلابد من طريق الى العلم بأن المعجز ليس بسحر — غير هذه مما تعرفه العامة ، ولا يختص بمعرفته العلماء بالسحر ولاحذاق أهل الكلام . نعم وهاهنا طريقان أحدهما أنه لو كان سحراً لما مكّن الله الساحر من فعله عقيب دعوى النبوة لا يقال فقد مكن المقنع من اطلاع قمر يرى من مسير ثلاثة أشهر أو شهر عند دعوى الربوبية واستمر حتى قتله المسلمون فى قلعة وأشتهر حتى قيلت فيه الاشعار فقال فيه المعرى :

أَفِقْ إنما البدر المقنع رأسهُ ضلال وغَىٍّ مثله بدر المُقَنّعِ

وكذلك مكن الله الدجال من خرق العادات عند دعوى الربوبية ، لانا نقول الدليل العقلى على بطلان ربوبيتهم قائم وكاف فى تكذيبهم وفى العلم ببطلان ما جاءوا به بخلاف ما لو ادعوا النبوة قبل أن يأتى السمع بانقطاع النبوة ، أما بعد أن جاء السمع بانقطاعها مثل أن يدعى بعد محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحد النبوة فانه لا يجب على الله أن يمنعه من اظهار السحر ، لأن العلم بكذبه وتزويره حاصل من قبل السمع اللهم الا أن يقال انه لا يقبح من الله تعالى أن يمكن الساحر من السحر عند دعواه النبوة الا لو لم نكن نشك فى أن ما جاء به سحر ، فاما والشك فى ما جاء به قائم والريب ثابت أسحر هو أم معجز فلا يجب فى حكمة الله منعه من ذلك بل الواجب فيها أحد أمرين اما أن يجعل لنا سبيلا الى العلم بأن ماجاء به معجز لا سحر فمتى شككنا فى ذلك فليس بمعجز وأما أن لا يرسل الا من يعلم أنه لا يحسن السحر فبهذا السؤال يضعف الاعتماد على هذا الوجه

الطريق الثانى وهى المقصودة هنا والمعتمد عليها هى العلم بأن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لا يحسن السحر فيعلم أن ما جاء به ليس بسحر ، أما المقدمة الاولى وهى أنه صلى الله عليه وآله وسلم لا يحسن السحر فتقريرها أن نقول لو كان يعرفه لكان اما أن يعرفه بالنظر أو بالتعلم من علماء السحر أو بالقراءة لكتبهم ولا رابع لكن كلها باطل فبقى أنه ما كان يعرف السحر . أما أن السحر لا يدرك بالنظر فالدليل عليه أن السحر راجع الى معرفة الخواص مثل العلم بأن المغناطيس يجتذب الحديد ، وخواص الاشياء وطبائعها لا تدرك بالفكر والا لوجب فيمن أطال فكره فى الاشياء أن يعرف طبائعها ، لكنا لو تفكرنا عمر الدنيا كله ما

عرفنا خاصية المغناطيس التي لاجلها جذب الحديد . ولا عرفنا أن طبيعة الثوم الحرارة ، وان ما تنفث به الافاعى سموم قتالة. نعم وقد حكى الجوينى فى مقدمات كتاب البرهان فى أصول الفقه أن هذا قول أكثر القدماء من الفلاسفة ، وتردد فيه هل هو من محارات العقول أو من مواقفها ، ويعنى بالمحارات التى يستحيل أن يدركها العقل ولا يصح من الله تعالى أن يُعَرِّف العقول بها ، ويعنى بالمواقف مالا تعرفها العقول الآن لمانع ويصح أن تعرفها ويمكن أن يُعَرِّفَ الله العقول تلك الامور المسماة بالمواقف. نعم وقد اعترف الجوينى بأن العقول الآن لاتدرك الخاصية تلك وأمثالها وهو المقصود وأما أنه صلى الله عليه وآله وسلم ما عرف السحر بالتعلم من السحرة فلأنه لا يخلو اما أن يكون قد قرأ عليهم الازمنة الطويلة حتى تيقن علم الرياضيات والطبائع والخواص . وهذا القسم باطل لانه لو كان لعلمه قريش واليهود ولو علموه لقدحوا عليه بذلك ولو قدحوا لنقل الينا لـكنه لم ينقل عن أحد من حذاقهم وأهل الجدل من فطنائهم قدح بذلك على النبي صلى الله عليه وآله وسلم فعلمنا أن المخالطة للسحرة ما كانت منه عليه الصلاة والسلام واما أن يكون قد عَلَّمَهُ السحرَ أحد من السحرة فى ساعة أو يوم على وجه لا يجب أن تعلمه قريش ولا غيرهم من المنكرين للنبوة : فهذا القسم أيضاً باطل لأنه يستحيل أن يأتى رجل أمى لم يألف خفة أهل الحيل والشعوذة ولا مارس أدوية الخواص والطبائع ولا انس بعلماء السحر ورجال الدربة فيه فيتعلم فى مدة قصيرة لا يشعر بها من السحر والخفة ما يبلغ به الى مرتبة فى خرق العادات لا يبلغ أقربَ درجاتها من أهل الذكاء المفرط من قَضى جميع عمره وقطع كل دهره واشتغل فى

عامة زمانه فى تعلم هذا الفن وتلقن هذا العلم وكل منصف يعلم أن العربى الصرف الامى المحض المتربى بين العرب العرباء أربعين سنة لا يتعلم فى ساعة من السحر ما لا يستطيع الاتيان بقريب منه كرآسى علماء السحرة وأناسى عيونهم المهرة . وأما أنه لا يعرف السحر من قبيل قراءة الكتب فلأنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب وذلك متواتر والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون » وقوله تعالى « قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » وقد حكى الله اقرار الكفار بذلك فى قوله تعالى « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه » فقالوا اكتتبها ولم يقولوا كتبها . وأشاروا الى أنه لا يقرأ بقولهم فيما حكى الله عنهم « فهى تملى عليه » ولم يقولوا فهو يُمليها

وجه آخر وهو أن القرآن ليس من جنس السحر ، وذلك لأن الاعجاز فيه انما هو فى حُسن ترتيبه ، وإحكام ترصيفه ، ومطابقة أفانينه لطيف حالتى القبض والبسط وموافقة أساليبه لرقيق شأنى القطع والربط . فوعيده يبكى العيون ، وتستَحلَبُ به الشئون ، وتقشعر له الجلود ، ويقطع نياط القلوب ، بما فيه من ذكر الخلود . ووعده يثير النشاط ويبعث الانبساط وأقاصيصه تسلى المحزون وتهدى الى القلوب غرائب العلوم مما كان ومما يكون ، فكيف يكون ما هذه صفاته الا كلام قادر عالم ، لأنه أمر محكم ، واحكام معجب . والسحر انما هو أثر طبع أو تعمية ، أو خفة أيد فالطبع لا يؤثر فى الامور المحكمات والا لجاز اسناد حدوث أحكام الانسان الى الطبائع والشك فى ثبوت المحكم الصانع والتعمية والخفة

لايؤثران فى الاشياء الدائمات والا لجوزنا فى جميع أشعار العرب العرباء المتأخرين والقدماء ، وجميع رسائل العلماء ، وخطب الخطباء ، وملح الفصحاء ، ونوادر البلغاء ، أنها تعمية وخفة ايد . وتزوير ، وأثر طبع . أقصى مافى الباب أن نعلم أن اكثرها ليس من هذا القبيل فلا تحصل فى قصيدة واحدة ولا رسالة معينة على يقين أنها ليست بسحر . وتعمية وخفة . وشعوذة . ومن المعلوم أن من شك فى ذلك فقد خرج من زمرة العقلاء . والتحق باهل التجاهل والسفهاء . ولو كان يجوز أنه من أهل السحر لجوزنا أن نسحر حتى اذا سمعنا كلاما بليغا . ونظاماً بديعاً . قد وشيت بعلوم البيان بردته . وحيكت من أفانين المعانى لحمته . وقمعت بظرايف الامثال أساليبه . وطرزت بمطابقة الاحوال افانينه . جوزنا انه من طمطمة العُجوم . وهمهمة علوج الروم . ومتى سمعنا رطن الاعاجم . واصوات البهائم . جوزنا أنها خطب سحبانية ورسائل بديعيّة . وأشعار جاهلية . ومواعظ علوية . وإذن قدر السحرة على أن يكونوا فصحاء بالسحر فقط

وجه آخر وهو انه لو كان ساحراً لكان مقصده الوصول الى لذات الدنيا فى نفسه وأهله قطعا . ولو كان ذلك مقصده لما تحمل مشاق العبادة وصبر على ثقيل الزهادة . واستمر على ذلك من أول امره الى آخره يصوم ويقوم . ويؤثر على نفسه . ويكره ان يرى زينة الدنيا مع أهله أو نسائه ولم تظهر منه قرينة تدل على خلاف ذلك . ثم انه أوصى أهله وولده بالصبر على ذلك بعد وفاته . وظهر منه أنه عنى فى بقاء الدين بعد موته وأنه لايحب من أعطاه المال ان لم يؤمن به . حتى ان أدنى المؤمنين ارفع لديه درجة من عمه ابى طالب . وذلك يفيد مع سائر القرائن القطع بمفارقته

للسحرة .واستقصاء هذه الدلائل فى كلام الرازى وانما هذا تنبيه فيه مزيد فائدة

وجه آخر ، وهو أن المعجز ماعجز عن الاتيان بمثله السحرة ، والمرجوع اليهم فى معرفة ذلك الجنس المدعى معجزا . بيانه ان الله تعالى يجعل المعجز من الجنس الذى يعرفه أهل ذلك الزمان أو كثير منهم تقوم الحجة بعجزهم على من عداهم الا ترى أن أهل زمان موسى لما كانوا سحرة جاء موسى بمعجز مما يشبه السحر عرفوا أنه ليس بسحر . وأهل وقت عيسى عليه السلام لما كانوا أطباء جاء باحياء الموتى الذى لم يقدر عليه طبيب وأهل زمان محمد عليه السلام لما كانت الفصاحة صناعتهم . وفى بحار البلاغة غياصتهم . وعليها مدارهم . وبها افتخارهم .جاء محمد عليه السلام من الكلام الباهر بما أسكت من تحداه من مساليق خطبائهم . ومفلقى بلغائهم . وانما فعل الله هذا حتى يعلم العباد ان المعجزات ليست بسحر . وان ما أتوا به لا يدافع بعذر . وهذا وجه غير الاول وهو جيد لمن تأمل

وجه آخر وهو ماكان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الكرامات فى زمن الطفولة فانها تخرجه عن زمرة السحرة مثل ما روى مسلم والنسائى عن أنس ان جبريل أتاه وهو يلعب مع الصبيان فصرعه فشق عن قلبه فاستخرجه وجاء الغلمان يسعون الى ظئره فقالوا ان محمداً قدقتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس قد كنت أرى ذلك المخيط فى صدره . وفى البخارى عن ابن عمر عن عمر عن بعض كهان الجاهلية سمع جنية قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم تقول :

اما ترى الجن وا بلاسها ويأسها من بعد ايناسها

ولحوقها بالقلوص واحلاسها

قال عمر صدق بينْا أنا نائم عنـد الصنم فصرخ صارخ يقول يامليح أمر نجيح ، رجل فصيح يقول لا اله الا الله ، فقمت فما نشبت ان قيل هذا نبي . فان قيل لا نسلم لـكم انه لم ينقل ان العرب ما ادعت ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم خالط أهل السحر ولا تعلم منهم بل قد حكى الله عنهم انهم نقموا ذلك عليه فقال تعالى « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يُلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين». قلنا ليس فى هـذا شيء مما ذكرناه لانهم لم يستدلوا على ما نسبوا اليه من ذلك بانه خالط مخالطة معروفة عندهم لرجل معروف ، أو رجال معروفين من أهل السحر ، ولا نسبوا ذلك الى زمن معروف ولا الى بلد ، ولو كان كلامهم مستنداً الى دلالة تفيد العلم أو امارة تثير الظن لقضت العادة بذكرهم لها والمبالغة فى تسييرها حتى تسير سير الامثال، وتناقلها ألسنة الركبان، ولو كان ذلك لنقل الينا فى غير القرآن كما نقلت الينا فى التواريخ سائر اخبارهم وعامة أحوالهم ، وانما افتروا ذلك كذبا عليه واختراصاً وضجرا منه وامتغاصا ، مثل ما كانوا يرمونه بأنه مجنون وهو الوقور الرصينُ وبأنه كذاب واسمه من قبل فيهم الصادق الامين ، من غير حجة على ذلك ، ولا امارة تدل عليه ، وانما قولهم لذلك صريحُ مباهتة ومحض مكابرة وبيّن مدافعة وفاضح معاندة ، وهذا هو ديدن المحجوج المبهوت ان يرمي خصمه بصريح الكذب ومحض البَهت ، من غير حجة ولا شبهة . وقد روى الحاكم فى المستدرك حديثاً صحيحا فى هذا المعنى فى تفسير سورة المدثر من حديث ابن عباس فى قول الوليد بن المغيرة ان هو الا سحر يؤثر أى يأثرُه عن غيره . وقال على شرط البخارى . الا ترى انهم لما علموا انه صلى الله عليه وآله وسلم كان

يمر على غلامين نصرانيين من عين التمر اسم أحدهما يسار والآخر خير وكانا صيقلين وكانا يقرآن كتباً لهم بلسانهم ، فكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يمر بهما ويسمع قراءتهما رموه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه تعلم أقاصيص القرآن منهما حين أمكنهم نسبة مخالطته عليه السلام إليهما فرد الله ذلك عليهم بقوله « لسان الذى يلحدون عليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » لانهما كانا يقرآن الكتب بلسانهم ولو قدرنا انه عرف لسانهما لما قدر أن يصوغه كما جاء مصوغا فى القرآن العظيم ولو كان متعلماً منهما لوجب ان يطول اختلاطه بهما وتعلمه منهما كما تقدمت اليه الاشارة . نعم فلو كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مخالط لغيرهما ممن مخالطته توهم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه تعلم منه لذكروا ذلك ولزادوا عليه كما ذكروا ما هو احقر من ذلك ونسبوا أكاذيبهم اليه . نعم وقد تمت الزيادة على كلام الرازى والعود أقرب الى المقصود الى هنا

قال الرازى : النوع الثالث ، أنه عليه السلام تحمل فى أداء الرسالة أنواع المشاق والمتاعب فلم يتغير عن المنهج الأول البتة ولم يطمع فى مال أحد ، ولا فى جاهه ، بل صبر على تلك المشاق والمتاعب ولم يظهر فى عزمه فتور ، ولا فى اصطباره قصور . ثم انه لما قهر الاعداء ووجد العسكر العظيم والدولة القاهرة القوية ونفذ أمره فى الاموال والارواح لم يتغير عن منهجه الاول فى الزهد فى الدنيا والاقبال على الآخرة وكل من أنصف علم أن المزوّر لا يكون كذلك فان المزور انما يروج الكذب والباطل على الحق ليجد الدنيا . فاذا وجدها ولم ينتفع بها كان ساعياً فى تضييع الدنيا والآخرة على نفسه ، وذلك مما لا يفعله أحد من العقلاء

النوع الرابع من معجزاته العقلية أنه كان مستجاب الدعوة والذى يدل عليه وجوه : أحدها أن قريشاً لما بالغوا فى ايذائه حتى دعا عليهم فقال « اللهم اشددوطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» فان الله منع من انزال المطر عليهم فبطلت زراعتهم ، وهلكت مواشيهم، واستولى عليهم القحط فجاءوا وشفعوا اليه حتى سأل الله انزال المطر عليهم فلما سأل ذلك جاءهم المطر حتى خافوا الغرق فعادوا وسألوه أن يدعو الله تعالى حتى ينزل المطر بقدر الحاجة فقال « اللهم حوالينا ولا علينا اللهم على الجبال وبطون الاودية » فاندفع ذلك عنهم . وثانيها أنه عليه السلام لما كتب الى كسرى ملك العجم مزق الملك كتابه وبعث اليه حفنة من تراب فقال صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم مزق ملكه» ثم قال للصحابة « انه بعث تراب بلدته الينا وهذا يدل على أنا نملك بلاده » ثم كان الامر كذلك وثالثها أنه عليه السلام قال فى حق عتبة بن أبى لهب « اللهم سلط عليه كلباً من كلابك» فافترسه الاسد ، ورابعها أنه عليه السلام دعا لابن عمه عبدالله ابن العباس فقال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل »فصار ابن عباس ببركة هذا الدعاء رئيس المفسرين . وخامسها أن الكفار لما وصلوا الى الغار فهو عليه السلام قرأ عليهم « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » فاولئك الكفار كانوا ينظرون الى الغار وما كانوا يرونه عليه السلام . وسادسها أنه لما خرج من الغار ذهب خلفه جمع من الكفار فلما قرب واحد منهم قال عليه السلام « يا أرض خذيه » فغاصت قوائم فرس ذلك الكافر فى الارض ببركة دعائه

النوع الخامس : من دلائل نبوته ورود البشارة بمقدمه العزيز فى

التوراة والانجيل . والدليل على ذلك أنه ادعى أن ذكره موجود فى التوراة والانجيل وقال الله تعالى « الذين يتبعون الرسول النبي الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل » وقال الله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد » وقال تعالى « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون » وقال تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » ومعلوم انه لو كان كاذبا فى ذلك لكان هذا من أعظم المنفرات لليهود والنصارى عن قوله . ولا يليق بالعاقل أن يقدم على فعل يمنعه من مطلوبه ويبطل عليه مقصوده ، من غير فائدة أصلا . ولا نزاع بين العقلاء أنه كان أعقل الناس واحذقهم

النوع السادس من معجزاته صلى الله عليه وآله وسلم اخباره عن الغيوب أما اخباره عن المغيبات الماضية فهو أنه صلى الله عليه وآله وسلم اخبر عن وقايع المتقدمين من غير قراءة كتاب . ولا استفادة من أحد فاما إخباره عن الغيوب المستقبلة فهو على قسمين منه ماورد فى القرآن ومنه ماورد فى الاخبار أما الذى ورد فى القرآن فكثير أحدها قوله تعالى « سيهزم الجمع ويولون الدبر » والسين فى قوله سيهزم الجمع للاستقبال والسورة مكية ، ثم انه حصل ذلك يوم بدر ، وثانيها قوله تعالى « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم » وقد كانت لهم ، وثالثها قوله تعالى « قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم أولى بأس شديد » ووقع ذلك لان المراد من القوم أولى البأس الشديد هم عند بعضهم بنو حنيفة وقد دعا الى قتالهم أبو بكر وعند آخرين هم فارس وقد دعا عمر بن الخطاب الى قتالهم ، ورابعها قوله تعالى « ألم غلبت الروم فى ادنى الارض وهم من بعد

غلبهم سيغلبون» وكان كما أخبر وخامسها قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» ولا يمكن حمل الآية الدالة على التوحيد لانها كانت حاضرة. وقوله «سنريهم» للاستقبال فلا بد أن يكون المراد منه فتح القرى المحيطة بمكة وبقوله وفى أنفسهم فتح مكة وقد وقع ذلك. وسادسها قوله تعالى «ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد» أى الى مكة وقد رده اليها. وسابعها قوله تعالى «ليظهره على الدين كله» وقد أظهره. وثامنها قوله تعالى «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم» والمراد منه الصحابة بدليل قوله «منكم» وبدليل قوله «وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا» وكانوا هم الخائفين فى مبدأ الاسلام. وتاسعها قوله تعالى «يا أيها الذين هادوا إن زعمتم» الى قوله «ولا يتمنونه ابدا» ثم كان كما أخبر. وعاشرها قوله تعالى «ضربت عليهم الذلة والمسكنة» وظهور ذلك معلوم فى اليهود فانه مارفعت لهم راية قط وما ظهر فيهم سلطان ولا ملك قاهر

قال مولانا رحمه الله رواة اخباره عليه السلام بالغيوب خ م س عن جابر بن سمرة خ م ت عن أبى هريرة «هلك كسرى فلا كسرى بعده» و م عن جابر بن سمرة و م عن أبى ذر «ستفتحون مصر» خ م د ت س عن جابر ستكون لكم الانماط د عن أبى هريرة «ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» خ م د عن حذيفة قام فينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فما ترك شيئاً يكون الى الساعة الا حدثه و م عن حذيفة مثله م عن عمرو بن اخطب الانصارى مثله م عن جابر و خ عن أبى هريرة حديث سم شاة اليهودية خ م د عن انس حديث شاة اليهودية.

هعن ابن شهاب حديثها أيضاً دعن عاصم بن كليب حديث الشاة التي اخذت بغير اذن صاحبها فاهدى له لحمها فأمر باطعامه الاسارى خ م س عن عائشة «أسرعكن بي لحوقا أطولكن يداً» دعن هلال بن عمرو عن على عليه السلام عنه صلى الله عليه وآله وسلم حديث الحرث الممكن لآل محمد خ م د عن أبي حميد الساعدى حديث الريح الشديدة هذه ثمانية عشر حديثاً

قال الرازى واما الاخبار عن الغيوب المستقبلة فى غير القرآن فكثيرة أحدها قوله عليه السلام «زويت لى الارض فأريت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها» رواه م ت د عن ثوبان فكان الأمر كذلك وثانيها قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعدى بن حاتم «لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا الله» قال عدى فرأيت ذلك رواه خ عن عدى وثالثها انه صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أصحابه بموت النجاشى وصلى عليه ثم شاعت الاخبار أنه مات فى ذلك اليوم ورابعها قوله عليه السلام لعمار بن ياسر «تقتلك الفئة الباغية» فقتل مع على صلوات الله عليه يوم صفين، وهذا يدل على توحيد الله ونبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وخلافة على عليه السلام وخامسها قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلى «أشقى الناس عاقر الناقة والذى يخضب هذه من هذه» يعنى الذى يضرب رأسك فتخضب لحيتك من دم رأسك ثم كان كما قال فضرب على رأسه حين قتل وسادسها قوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلى عليه السلام: ستقاتل الناكثين وهم أهل الجمل والقاسطين وهم أهل الشام والمارقين وهم الخوارج، وسابعها قوله صلى الله عليه وآله وسلم «اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر» فكان هذا اخباراً منه ببقائهما بعده وثامنها قوله صلى الله عليه وآله وسلم: الخلافة بعدى ثلاثون

سنة وكان خلافة الخلفاء الراشدين بعده هذا القدر وتاسعها قصة ليلة الاسراء فانه أخبر قريشاً عن أمور وكانت كما أخبر رواها خ م ت عن جابر وعاشرها قوله صلى الله عليه وآله وسلم للعباس حين أسره: افد نفسك وابني أخيك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث فانك ذو مال » فقال لا مال عندي فقال « أين المال الذي وضعته بمكة عند أم الفضل وليس معكما أحد فقلت ان أصبت في سفري فللفضل كذا ولعبد الله كذا ولفلان كذا » فقال العباس والذي بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيري وانك لرسول الله . وأسلم هو وعقيل

واعلم ان معجزات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيرة ولنكتف هاهنا بهذا القدر فثبت بما ذكرناه أنه صلى الله عليه وآله وسلم ادعى الرسالة وظهرت المعجزة على وفق دعواه . انتهى كلام ابن الخطيب الفخر الرازي كافأه الله عن احسانه بالحسنى

ومما يلائم هذا الكلام ما رواه خ م عن ابن عباس عن أبي سفيان عن هرقل أنه جيء بكتاب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم اليه فقال هرقل هل هاهنا أحد من أصحاب هذا الرجل؟ قال أبو سفيان فقلت أنا فأجلسوني بين يديه وأصحابي خلفي . ثم دعا بترجمانه فقال قل لهؤلاء اني سائل هذا عن هذا الذي يدعي انه نبي فان كذبني فكذبوه ، ثم قال لترجمانه سله كيف حسبه فيكم ؟ قلت هو فينا ذو حسب قال فهل كان في آبائه من ملك؟ قلت لا . قال فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت لا قال فهل معه أشراف الناس أم ضعفاؤهم؟ قلت بل ضعفاؤهم قال أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت بل يزيدون ، قال هل يرتد أحد منهم عن دينه بعد ان يدخل فيه سخطة له ؟ قلت لا قال فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم . قال فكيف

كان قتالكم ؟ قلت يكون الحرب بيننا سجالا يصيب منا ونصيب منه ، قال فهل يغدر؟ قلت لا قال فهل قال أحد هذا القول قبله ؟ قلت لا قال فبم يأمركم ؟ قلت بالصلاة والزكاة والعفاف ، قال ان يكن ما تقول حقاً فانه نبي، وقد كنت أعلم انه خارج ولم أك أظنه منكم ، وليبلغن ملكه ما تحت قدمى ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ، ثم ذلك مختصرا هذا لفظ خ وعند م نحوه

واعلم انك اذا نظرت فى هذه الاحوال الشريفة المختصة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم علمت صدقه بالضرورة وهى طريقة قوية ويقوى هذا ان المختار عند المحققين من العلماء ومذهب السيد الامام المؤيد بالله عليه السلام وهو مذهب الامام يحيى بن حمزة عليه السلام وهو الذى اختاره ابن الحاجب فى المنتهى وهو الذى اختاره الرازى فى المحصول ورواه عن النظام وامام الحرمين والغزالى قال والباقون انكروه فاذا كان مذهب هؤلاء العلماء الاكابر ان خبر الواحد من عامة الناس اذا انضمت اليه قرائن قوية افاد العلم وقام مقام التواتر فهذا فى خبر آحاد الناس فكيف بخبر أفضل الأولين والآخرين ؟ وهذا فى القرائن التى مثلوها بأن يخبر انسان ملكا بأن ولده مات مع انتهاك حريم وظهور جنازة ومن أنصف علم ان القرائن التى ظهرت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أكثر من هذه وأقوى متجردة عن القرائن الظاهرة على الانبياء كافة فكيف اذا قرنت النظر فى معجزاته بالنظر فى معجزاتهم وجمعت التأمل لأحواله بحسن التدبر لأحوالهم ويؤيد ما ذكرناه من أن خبر الواحد اذا انضمت اليه القرائن يفيد العلم أن خبر التواتر انما أفاد العلم لكثرة القرائن وذلك

ان خبر كل واحد من أهل التواتر قرينة تولّد الظن فاذا تضامت القرائن وكثرت خلق الله عندها العلم عادة فكذا اذا تكاثرت القرائن فى شخص واحد جاز ان يخلق الله العلم عند خبره ويؤيد ما ذكرنا ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم بل الانبياء كافة ما كانوا يأمرون الصبى اذا بلغ التكليف بالنظر الى الادلة ولا الكافر الذى يأتى مصمماً على انكار الله وجميع الشرائع بالنظر قبل تصديق النبى فى اثبات الصانع وانه حكيم حتى يعلم أن الله متى كان حكيما قادرا لم يظهر المعجز على الكاذب وحتى انه ان صدق النبى صلى الله عليه وآله وسلم قبل اتقان معرفة الصانع وانه عالم بجميع المعلومات قادر على جميع المقدورات حكيم لا يفعل القبيح فقد بنى تصديقه للنبى على غير أساس اذ لا يمتنع عنده ان يكون الله أظهر المعجز على يد الكاذب فان قيل انه يجوز أنهم كانوا قد نظروا وان النبى صلى الله عليه وآله وسلم علم ذلك أو كان ذلك هو الظاهر منهم والنبى صلى الله عليه وآله وسلم يحكم بالظاهر قلنا الظاهر انهم كانوا يعرفون الله بمعجز النبى صلى الله عليه وآله وسلم أو قرائن صدقه وانما كانوا يفرعون جميع عقائدهم على تصديق النبى صلى الله عليه وآله وسلم بالمعجز فهم او أكثرهم استفادوا معرفة الله من الأنبياء.

والذى يدل على هذا أن العلم بالله من طريق الاستدلال لا يحصل لاحد الا بعد الاتقان لأدلة المتكلمين بل كثير من الناس يفنى عمره فى درسها وما يحصل على طائل من تحقيقها بل الاقل من العلماء هو الذى يستفيد فى هذا الفن ويتمكن من رد الشبه ودفع المناظرين ولو أن العامى المغفل أتى بأدلة المتكلمين وأجوبتهم عن الفلاسفة وان غيّر العبارة من غير

أن يأخذ عن شيخ ولا يدرس كتابا لكان ذلك من قبيل المعجز الخارق للعادات

ومما يوضح صحة الاستدلال على اثبات الرب سبحانه وعلى صدق النبوة بالمعجز قول الله تعالى فيما حكى عن موسى عليه السلام وفرعون وهو قوله تعالى فى الشعراء « قال لئن اتخذت إلهاً غيرى لاجعلنك من المسجونين،قال أولو جئتك بشىء مبين؟قال فات بهان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين » فهذا موسى عليه السلام احتج بالمعجز على صحة عقيدته فى نبوته وغيرها على من صرح له بنفى الرب سبحانه . وبهذه الطريقة آمن السواد الاعظم من أهل الاسلام وعند غلاة المتكلمين لايصح ذلك لانه قبل معرفة الله يجوز أن الله تعالى يظهر المعجز على يد الكاذب ، تعالى الله عن ذلك

ومما يدل على ذلك أيضاً أن السحرة حين ألقوا عصيهم ما كانوا قد عرفوا الله تعالى قال الله تعالى « فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انالنحن الغالبون فالقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فالقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون »

ويدل على ذلك قوله تعالى « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله» فهذا من الله تعليم لما تشهد العقول بصحته ولأصح الطرق الى معرفته ولذلك لم يقدح فيه من سمعه من عقلاء الكفرة فمن قال ان هذه الاشياء لم تفده علماً قيل له ما قال موسى لفرعون « لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض بصائر » فان قال هذا تعصب قلنا لابد أن يقول المتكلم مثل هذا لمن أنكر دليله فمن أنكر دليل موسى

أولى فان قيل فهل تجوزون فى العقل نبوة يكون الدليل على صدق مدعيها قرائن أحواله من دون معجز فان مذهبكم يستلزم ذلك. قلنا نعم يجوز ذلك عقلا لا سمعاً أما تجويزه عقلا فالدليل عليه أن العقل اما أن يقضى بأن القصد من النبوة الظن بصدق صاحبها اذ العمل لا يحتاج الى أكثر من الظن فجواز ذلك ظاهر واما أن يقضى العقل بأن القصد من النبوة لا يتم الا بعد العلم بصدق مدعيها فالنبوة على هذا تصح بشرط أن يكون خبر مدعيها يفيد العلم وذلك حيث تنضم قرائن فى عدالته وسائر شواهد أحواله مثل القرائن التى ظهرت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا هو الظاهر من تصديق الانبياء لجبريل عليه السلام فان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد ثبت أنه جاءه وفزع منه وأمره بالقراءة فامتثل الامر وصدق ولم يطالبه بمعجز ولم يكن قد عرف القرآن فيستدل باعجازه وليس فى ذلك تجويز له بل فيه منع منه لان دليل السمع يكفى فى المنع من ذلك وانما قلت انه لولم يرد السمع بذلك لجاز مثل مايقول الاصحاب لولم يرد السمع بتحريم الزنا لجاز وليس فى ذلك تجويز له ، وكذلك قال تعالى « لئن أشركت ليحبطن عملك » وليس فيه أن عمله حابط لما وقف على شرط وكذلك هذا الكلام ليس فيه أنه يجوز نبى من غير معجزة لانى أجزت ذلك لو لم يرد السمع بمنعه لكن السمع ورد بمنعه فوجب القول بأنه لا يصح ، وقد كان جبريل عليه السلام يأتيه على صورة دحية الكلبى وغيره فيعلم أنه جبريل بغير معجز ولو طالبه معجزاً لقضت العادة بأن يذكر ذلك النبى صلى الله عليه وآله وسلم حين ذكر قصة بدء الوحى فان ذلك من أعجب ما فيها.

واعلم أن العقل لا يوجب العلم بصدق الانبياء بل لو خلّينا والقضية العقلية لكان ظن صدقهم يكفينا فى حسن العمل بما جاءوا به من الشرائع لكن جاء الانبياء بأنه يجب الجزم على صدقهم فوجب ذلك سمعاً وكذلك معرفة الله تعالى لا تجب عقلا ولا دليل للمعتزلة على وجوبها عقلا لكنها واجبة سمعاً أما اللطف المقرب فلا دليل على وجوبه وهو أشف ما تمسكوا به وأما غيره من أدلتهم على وجوبها عقلا فظاهر الفساد

واعلم أيضاً أن العقل لا يوجب المعجز فى النبوة وانما وجب ذلك سمعاً ومعنى وجوبه أن السمع جاء بأن كل نبي لم يصدقه الله تعالى بالمعجز فهو كاذب وذلك السمع الذى جاء بذلك هو الاجماع وان كان صاحب كتاب الدعائم من الامامية اجاز ذلك عقلا وسمعا واحتج عليه لكن فيه شذوذ وقد الزم الجبائى من أجاز قبول خبر الواحد عن النبي أن يقبل خبر الواحد عن الله تعالى من غير معجزة والجواب عليه هو ما قدمنا من أن خبر الواحد عن الله تعالى متى أفاد الظن كخبر الواحد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وجب العمل به عقلا لكن السمع قد أخبر بكذب من أخبر عن الله من غير معجزة وخبر السمع بكذبه يقتضى القطع بكذبه ويستحيل أن يحصل ظن بصدقه بعد أن حصل علم بكذبه اذ القطعى والظنى لا يتقابلان

فان قلت فلم جاء السمع بأن من ادعى النبوة من غير معجزة فهو كاذب؟ قلت لوجوه :

أحدها أن نقول لحكمة استأثر الله بعلمها ولا يجب علينا أن نعينها بعد أن دللنا على كونه حكيما لا يفعل القبيح ولا العبث

الوجه الثانى · أن تقول ان الله تعالى علم أن اظهار المعجزة على مدعى النبوة أولى فى الحكمة من عدمه لا على جهة الوجوب بل على جهة الاولى ، وحينئذ وجب أن يفعل الله تعالى ذلك وجوب استمرار وحكمة لا وجوب اضطرار ولا وجوبا يستحق تاركه الذم بل من حيث ان ترك الراجح مع كونه راجحاً ولا مشقة فى فعله على خلاف المعقول . فان قيل فهلا أوجبتم على الله العفو عن الكفار وغير ذلك من أفعاله التى يقضى العقل برجحان تركها ؟ قلنا : كل ما فعله الله تعالى لم نسلم أن العقل يقتضى رجحان تركه وكل ما تركه لم نسلم أن العقل يقتضى رجحان فعله فان قضى بشيء من ذلك فلقصوره عن الاحاطة بحكم الله التى اقتضت ترجيحه ولذلك لما علم الخضر ما لم يعلم موسى رجح ما لم يرجح وبالجملة فالاختلاف فى مقدار العلوم يوجب الاختلاف فى الاحكام المتفرعة عن تلك العلوم وعلى هذا فلو وقع الاتفاق بيننا وبين أحكام الله ولم يرد فى السمع متشابه كان ذلك من أعظم المتشابه لانه يقتضى أن يستوى الخلق وعلام الغيوب مع كثرة جهالاتهم ومعارضة شهواتهم وأهوائهم وكثرة أوهامهم واغلاطهم مع الرب الذى يستحيل عليه جميع ذلك

الوجه الثالث : ينبنى على صحة القول بأن اللطف غير مقرب وهو لطف التوفيق واجب على الله تعالى وذلك أن تقول متى علم الله أنه متى أظهر للمعجز صدق بعض المكلفين الانبياء ومتى لم يظهره لم يصدق وجب ذلك مثل ما بعث الله تعالى الى بعض الامم ثلاثة رسل ، قال الله تعالى « فعززنا بثالث »

فان قلت : فما تقول فى اللطف المقرب ، هل يجب على الله

تعالى ؟ قلت ان كان أولى فى الحكمة وجب وقوعه وجوب استمرار ولم يجب فى نفسه على الله تعالى لكن المعقول يقتضى وجوب وقوعه ووقوع كل راجح لا مشقة على فاعله فى فعله قط وان لم يكن راجحاً فى الحكمة لم يجب لأنما لم يكن واجباً فى الحكمة ولا راجحاً لم يقع رأساً إذن لو وقع من جهته تعالى المرجوح أو المتساوى الذى ليس وجوده أولى من عدمه وذلك لا يجوز عليه سبحانه بالاجماع بين العدلية لانه خلاف الحكمة

الوجه الرابع : أن تقول لعل الله علم أن اظهار المعجز على الانبياء أولى لئلا يدعى النبوة الكاذبون والله تعالى وان كان قادراً على تكذيبهم بأن لا يخلق علماً بصدقهم لكن الغلاط يمكن من اتبعهم سيما اذا حصل له ظن قوى والظن القوى لا يكاد يفرق بينه وبين العلم الا الراجحون من أهل العقل وكل هذه الوجوه متقاربة اذ محصولها يرجع الى بيان وجه الحكمة المعلومة على سبيل الجملة فى اظهار المعجز على الرسل . فان قيل اذا قلنا إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم معلوم صدقه ضرورة من قرائن أحواله فهل يترتب شىء من الدين على القول بالتحسين العقلى ؟ قلت لا يترتب عليه شىء الا اعتقاد القطع بأن الله تعالى لا يفعل القبيح على تقدير أن السمع لم يرد بذلك اما الآن فنعلم أنه لا يفعل القبيح سمعاً وهو يكفى . وكذا نعلم بالسمع أن الله تعالى لا يجوز عليه فعل القبيح لا فى ما مضى من الزمان ولا فى ما يأتى . وكذا نعلم صحة التحسين والتقبيح فى حقه تعالى سمعا لقوله تعالى « قال انى أعلم مالا تعلمون » فدل على التحسين من وجهين أحدهما أن الملائكة سألوا عن الوجه ولو كانوا يعتقدون نفى التحسين ما كان لسؤالهم عن الوجه معنى . والثانى أن الله تعالى حمل

الجواب قاضياً بأن العلة علمه تعالى لا كون الاشياء ليس فيها قبيح أصلا فاذن المستدل على الله تعالى بهذا الدليل لا يحتاج الى اثبات التحسين والتقبيح بالعقل بل يثبتهما بالسمع . وهذه فائدة جليلة تأمن معها من الداء العضال الذى أورده الرازى فى المحصول فى صدق الله تعالى على قول المعتزلة والاشاعرة

فان قلت وما الدليل على أن قرائن الاحوال تفيد العلم بصدق من ظهرت عليه متى كثرت ؟ قلت الدليل على ذلك العقل والسمع أما السمع فالكتاب والسنة أما الكتاب فقوله تعالى « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون » وقوله تعالى « فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون » وكذلك قوله تعالى « قل انما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ان أجرى الا على الله وهو على كل شىء شهيد » وقوله تعالى فى الشعراء « أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى اسرائيل » اذ لا فرق بالنظر الى دليل المعجز بين أن يكون النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يتلو من قبله كتاباً و يخطه بيمينه أولا وبين أن يكون لبث فيهم عمراً من قبله أولا اذ فعل المعجز يتعذر على من قرأ قبله كتاباً وخطه وعلى من لم يلبث فيهم عمرا كما يتعذر على من لم يكن كذلك فلما فرق الله بين الحالتين حتى أثبت الريبة فى أحدهما دون الاخرى وحتى وبخهم بقوله « أفلا تعقلون» حين لم يصدقوا من لبث فيهم عمرا كثيراً لم يأت بشىء من القرآن ولاجرى على لسانه ذكر النبوة ثم جاء بذلك بعد ما مضى أكثر عمره علمنا أنه تعالى

احتج عليهم فى هاتين الآيتين بالقرائن التى تفيد العلم اذ لو لم يحتج بها لما كان لهما معنى ولكان الخام الرسول حين جاء بهما ممكنا وذلك لا يجوز وفى قوله « أفلا تعقلون » تنبيه على أنه لا ينكر صدق من قضت القرائن الضرورية بصدقه من هو عاقل وفى قوله « إذاً لارتاب المبطلون » دليل على ما تقدم من أنهم انما علموا أنه ليس بساحر من حيث انهم علموا بقرائن أحواله أنه ما كان يعرف السحر لا أنهم عرفوا ما الفرق بين السحر والمعجز وذلك لان الله تعالى بين أنه لو كان يقرأ الكتب ويخطها لارتابوا ووجه ريبتهم أن يقولوا هذا علمٌ من الكتب كنفثات السحر وخواص الاشياء والاسماء فلا يمتنع ان هذا سحر أما اذا كان فى البعد عن ذلك مثل أحدهم وكان السحر لا يدرك بالفكر اذاً لادركوه مثلما ادركه ثم جاء بما لا يقدرون عليه انقطعت مواد الوسواس وانحسمت علاقات الهواجس وجزمت العقول على صدقه وحين أيسوا من القدح بالشبه القوية رجعوا الى التشبيه بالامور الباطلة وقد حكى الله ما تمسكوا به وأشار تارة الى ضعف كلامهم وتارة الى عنادهم قال تعالى « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » وقال تعالى « وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه » فقالوا اكتتبها لما لم يكن يكتب وقالوا فهى تملى عليه لما لم يكن يقرأ ولو كان يكتب ويقرأ لقالوا كتبها فهو يمليها والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا، قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » فأشار الى أن الرسول ينبغى أن يكون من جنس المرسل اليهم لانه لو

كان جنسا غيرهم واتى بالمعجز لقالوا لعل المعجز مقدور لهذا ولو كان من غيرهم ما عرفوا من قرائن صدقه وتركه لشهواته وأمثال ذلك ما يعرفون فى جنسهم ولهذا فانه يبتدئ النبي بدعوى النبوة بين قومه لشدة معرفتهم بقرائن صدقه

وأما السنة فما روى خ م ت عن ابن عباس قال لما نزلت «وانذر عشيرتك الاقربين» صعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا فجعل ينادى يابنى فهر يا بنى عدى لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل اذا لم يستطع ان يخرج أرسل رسولا لينظر ماهو فجاء أبو لهب وقريش فقال «أرأيتكم لو أخبرتكم ان خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟» قالوا نعم ما جربنا عليك إلا صدقا قال «فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» وروى خ م فى الصحيحين عن أبى موسى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « ان مثلى ومثل ما بعثنى الله كمثل رجل أتى قومه فقال ياقوم انى رأيت الجيش بعينى وانى أنا النذير العريان ، فأطاعه طائفة من قومه فادلجوا فانطلقوا على مهلهم وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم ذلك الجيش فأهلكهم واجتاحهم فكذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق» فانظر كيف شبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم صدقه بصدق من يعلم صدقه بالقرائن الضرورية فى حال لا أحوج منها الى ايراد الدليل الواضح وفى ضرب المثل لاتشبه فيه الاشياء الا بما يماثلها مماثلة ظاهرة وأما الآثار فمثل حديث ابن عباس الثابت فى الصحيح فى شأن هرقل وأبى سفيان كما مضى ومثل كلام جعفر بن أبى طالب عليه السلام الذى أجاب به النجاشى فان فيه : فبعث الله الينا رسولا

منا نعرف صدقه وأمانته فآمنا به، أو كما قال فاكتفى بذكر معرفتهم لصدقه وأمانته وكلامه عليه السلام معروف فى مواضعه

وأما العقل فهو انا نعلم صدق من ظهرت عليه القرائن ضرورة مثل خبر الرجل الثقة بموت ولده متى علمنا بمرضه ثم سمعنا بالصراخ العظيم وانهتاك الحريم وظهور الجنازة واجتماع للمعزين وغير ذلك ، وهذه القرائن أقل من القرائن الشاهدة بصدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومتى علمنا صدقه ضرورة لم يجب نصب دليل على ذلك لأن الاستدلال لو وجب على الضروريات لما صح علم أبدا لان الاستدلال ان لم ينته فما لانهاية له محال وان انتهى فلا نهاية له الا الى الضرورة واعلم أنا رأينا الامور العادية مختلفة منها ضرورية تحصل لكل عاقل وان لم ينظر ويتفكر مثلما انك اذا لقيت صاحبك علمت بالعادة انه هو ذلك ومن الجائز ان الله خالق مثله لكنك لا تجوز انه شُبّه لك مثل ما شبه عيسى عليه السلام للنصارى الذين زعموا أنهم قتلوه قال تعالى « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم » فمن شك فى أن صاحبه هل هو هو أو هو مثله خرج عن دائرة العقلاء

فان قلت فكيف يقطع بأنه صاحبه ويُجوّز ان الله خلق مثل صاحبه قلت تحقيق هذا ان تجويزه راجع الى العلم بأن الله قادر على أن يخلق مثل صاحبه وشبهه عليه كما شبه عيسى على قاتليه وأن لا يخلق وعلمه العادى راجع الى انه علم ان الجائز فى مقدور الله وقوعه لم يقع فانه علم بأن جائز الوقوع ما وقع فلا تناقض بينه وبين تجويز الوقوع بالنظر الى القدرة وهذا كالعلم بأن المرجوح لا يقع قطعاً من الله تعالى ولا من غيره مع تجويز وقوعه بالنظر الى القدرة . فهذا قسم من العاديات ضرورى ، وأمثاله كثيرة

والقسم الثانى منها لا يحصل الا عقيب العلم بالقرائن الموجبة لها كانها لما لم تكن معلومة للجميع احتاجت الى النظر فمن عرفها أو عرف كثيراً منها عقيب ذلك النظر صدق ما دلت عليه علماً ضرورياً لا يمكنه الشك فيه على اختلاف بين الناس فى تسمية العلم الحاصل عقيب النظر ضرورياً وفى الحقيقة الخلاف لفظى فان قيل ان العادة غير مستمرة بحصول العلم بصدق القرائن كما هى مستمرة بحصول العلم عقيب المجربات كاحتراق القطن بالنار قلنا ان أردتم انها لم تستمر فى حق كل قرينة أو قرائن فسلم وان أردتم انها لم تستمر عند ظهور القرائن الكثيرة التى مثل قرائن صدق النبى صلى الله عليه وآله وسلم فغير مسلم . فان قيل ان المثال المتفق عليه فى احراق النار للقطن مستند الى المشاهدة فلا تقاس عليه القرائن الشاهدة بصدق النبى صلى الله عليه وآله وسلم لانا نقول : لم نرد القياس حتى يبطل بوجود الفارق وانما أردنا بالمثال أن نرى الخصم أنه يقول بحصول العلم مع التجويز الراجع الى القدرة لا الى المعلوم . فان قيل اثبات العلم الضرورى الحاصل عن القرائن لايصح فى ما لم يسند الى المشاهدة بالاجماع وانما وقع الخلاف فى ما يستند الى المشاهدة قلنا لا نسلم بالاجماع فدلوا عليه واثبتوا لنا اجماعاً قطعياً متواتراً عن كل عالم كلامى وغيره نصاً فان الاجماع الظنى فى هذه المسائل غير مفيد ومنتهى ما فى الباب أنا نسلم أن هذا العلم الحاصل من القرائن لا يسمى عاديا فما الدليل على انحصار أقسام العلوم الضرورية فى الاقسام التى سماها المنطقيون ؟ وما المانع من اثبات علم ضرورى ليس من أحد تلك الاقسام ؟ واجماع الناصين على حصر أقسام الضروريات ليس بحجة ولا شبهة والحمد لله

والقسم الثالث من العاديات غير مفيد للعلم مثلما أنا نجوّز أن تطلع الشمس غداً من المغرب مع أن العادة طلوعها من المشرق وذلك لأن العلم الضروري صنع الله فلو كانت العادة هي المؤثرة فيه لوجب وجوده عند وجودها مستمرة لكن العلة فيه خلق الله تعالى له فان قيل فيلزم إما أنّ قَتَلَةَ عيسى كانوا يعلمون أنه عيسى مع أنه ليس بعيسى هذا خلف واما أنهم كانوا يشكون فيه فقد خرجوا عن زمرة العقلاء. والجواب أنا نلتزم أنهم شكوا وقال الله تعالى « وقولهم انا قتلنا المسيح ـ الى قوله ـ وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً » قوله يلزم خروجهم عن زمرة العقلاء قلنا لا يلزم لأن الله لم ينزع من قلوبهم العلوم الضرورية لكن لم يخلق لهم اعتقاد جهل أن ذلك عيسى وانما كانوا يخرجون عن العقلاء لو رأوا عيسى بنفسه ثم شكوا في كونه عيسى من غير موجب للشك. فان قيل فهل يجوز أن ينزع الله العلم الضروري من قلب العبد ثم يبقى مكلفاً ؟ قلت: أما بدليل العقل فيجوز وأما بالسمع فلا أدري. فان قلت فهل يجوز مطلقاً أم لا ؟ قلت لا بل يفصل فنقول من العلوم ما لا يتم التكليف الا به مثل علم التحسين والتقبيح سوى استدلالنا عليه عقلا أو سمعا ومثل العلم بالعلوم التي لا يثبت صدق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا الاقرار بالصانع تعالى الا بها ومنها مالا يتعلق بالتكاليف رأساً مثل أن يخبر رجل بموت كافر لا تجب الصلاة عليه مع قرائن توجب العلم بصدقه عادة لم لا يخلق الله العلم بصدقه فلا يرتفع عنه شيء من التكاليف لعدم هذا الضروري في العادة وان تعلق به تكليف وبقي مع عدمه تكليف سقط ما تعلق به

(فان قيل) ما الفرق فى العاديات بين الظن الغالب والعلم؟ قلنا ان يميل المعتقد للشيء الى جهة التشكيك ويصغى اليها غاية الاصغاء بعد النظر التام فان شك فهو الظن والا فهو علم ، وهذا هو الميزان الذى يميز به بين الظن والعلوم فى جميع الظنون والعلوم فاعتبره (فان قيل) فلماذا حث الله على التفكر فى خلق السموات والارض وسائر المخلوقات وهلا اقتصر الحث على النظر فى معجزات الانبياء وأحوالهم ؟ قلنا لسنا ننكر ان ذلك طريق واضح لكنا نقول ان هذا أيضاً طريق آخر والطرق الى معرفة الله كثيرة . ولله من قال

وفى كل شيء له آية تدل على انه واحد

ولا ندعى ان جميع المكلفين ما عرفوا الله الا من طريق تصديق الانبياء بل ندعى ان كثيراً من المكلفين ما عرفوا الله الا من طريق تصديق الانبياء وان ذلك تواتر إلينا تواتراً معنوياً عن كثير من الناس وتواتر إلينا أيضاً تواتراً معنوياً ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قررهم على تصديقهم له فلو لم يكن صدقه معلوماً ضرورة من قرائن أحواله لكان قد اقرهم على التصديق مع الشك فى الصانع وذلك اقرار على الكفر ولا يجوز عليه مثل ذلك ومن أراد معرفة ذلك فعليه بمطالعة السيرة النبوية وتواريخ الصحابة ومعرفة أحوالهم فان الدلالة على مثل ذلك بالبرهان لا تصح . نعم فان قيل هلا قلتم انهم قد عرفوا الله تعالى وصفاته بالادلة الجملية دون التفصيلية ؟ قلنا هذه التفرقة بين المعارف غير صحيحة على ما يدل عليه وهو اختيار فخر الدين الرازى ونحن نكتفى فى ذلك بايراد كلام الرازى فنقول قال فى المحصول (واعلم) أن هذا الفرق انما يتلخص اذا سلمنا لهم الفرق بين صاحب الجملة وصاحب التفصيل وعندى أن هذا الفرق

باطل وذلك أن الدليل اذا كان مركبا من عشر مقدمات فالمستدل ان كان عالما بها بأسرها وجب حصول العلم النظري له لا محالة وامتنعت الزيادة عليه لأن تلك المقدمات العشر اذا كانت مستقلة بالانتاج فلو انضمت مقدمة أخري اليها استحال أن يكون لها أثر ألبتة ، وأما ان لم يحصل العلم بها بأسرها مثل أن يحصل العلم بتسع منها ولم تكن المقدمة العاشرة معلومة بالضرورة ولا بالدليل وكانت مقبولة علي سبيل التقليد فتكون النتيجة المتولدة عن جميع تلك العشر المقدمات تقليدا لا يقينا فثبت أن التمسك بالدليل لا يقبل الزيادة والنقصان البتة (مثاله) أنهم يقولون ان صاحب الجملة يكفيه الاستدلال بحدوث الحوادث فى العالم من الرعد والبرق والحر والبرد على وجود الصانع فنقول هذا لا يكفى لانا نقول هذه الحوادث لا بد لها من مؤثر وذلك المؤثر يجب أن يكون مختارا. أما المقدمة الاولى فمعلومة للعوام . وأما الثانية فغير معلومة لهم لانهم ما لم يثبت أن ذلك ليس أثرا لمؤثر موجب لم يجب اسناده الى المختار فاذا قطع العامى بأن ذلك يجب اسناده الى المختار من غير دليل كان مقلداً وكذا اذا رأى حدوث فعل خارق العادة على يد نبي فقطع بنبوته قبل الاستدلال على أن ذلك ليس خاصية لنفس ذلك النبي ولا فعلا لغير الله ولا خاصية لدواء كان ذلك تقليداً فظهر أنه لا علم الا تفصيلي. فان قيل فما المخلص على قولكم من أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرر على التقليد ؟ قلنا انهم كانوا يظهرون له عند تصديقه أنهم قاطعون بصدقه ولم يكونوا يظهرون أنهم شاكون فى صدقه فكان يجريهم على الظاهر فى أنهم عالمون بصدقه ولكن كثيرا منهم ربما أظهر أنه انما صدق بالله قبولا من النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولهذا قلنا ان تصديقه

بالله عز وجل من غير دليل سوى العلم بصدق النبي كاف لمن حصل له.
فان قيل : من أين علمتم أن الأنبياء كثرة لا يجوز عليهم التواطؤ على الكذب وان قرائن أحوالهم القاضية بصدقهم ثابتة وان ما ذكرتم من المعجزات التي ظهرت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصية ثابتة ؟
قلنا : علمنا ذلك كله بالتواتر المعنوى كوقائع علي فى الشجاعة وحاتم فى السخاء وان كان كل خبر بالنظر اليه بعينه مظنون لكن الجملة معلومة.
فان قيل فالكثرة لا تدل الا على أنهم لا يتعمدون الكذب أما انهم لا يخطئون غلطاً وتوهماً فلا فان طائفة الفلاسفة على كثرتهم قد غلطوا ونحن نجد من أنفسنا أن جميع أهل العلم لو أخبرونا بأن لنا خالقاً ما وجدنا علماً ضروريا بصدقهم ؟ قلنا ليس العلة فى العلم بصدقهم هو مجرد كثرتهم لكن أمور أحدها كثرتهم وثانيها جميع ما ظهر عليهم من القرائن التي لاتوجد فى علماء الاسلام ولا علماء الفلاسفة ولا غيرهم وقد تقدم تعدادها وثالثها أن فيما جاءوا به ما يستحيل أن يعلموه بالدلالة والنظر كالصلوات وسائر أنواع العبادات ومقادير الثواب على الطاعات والعقاب على المحرمات.
فان قلت يجوز أنهم علموا ذلك بالطريق النظرية التي علمه بها المتكلمون ؟
قلت ان الانبياء عليهم السلام جاءوا من تفاصيل ذلك بما لم يأت به أحد من علماء النظر ولا ادعاه مثل معرفة كمية الحسنات الحاصلة على التسبيحة الواحدة ونحوها وانما نهاية المتكلم أن يعلم أن فاعل الفعل الحسن يستحق عليه الثواب

الوجه الرابع أنهم كانوا مهملين للانظار الكلامية مجانبين لطرائق المتكلمين المنطقية لم يدرسوا على أحد من أهل صناعة الاستدلال كتاباً

ولا سمعوا من واحد منهم كلاما ، يجلس الواحد منهم أربعين سنة لا يخوض فى شىء من الالهيات ولا يكتسب المطالب النظريات ثم يخوض دفعة واحدة فى الأحكام الأزلية والنعوت الخفية والامور التي احتجبت عن أذكياء البرية بحيث لو اجتمع عليه جميع الفلاسفة وشملُ الذكاء المتقدة من المتقدمين والمتأخرين والفلاسفة والمسلمين يوردون عليه الشبه التى تتحير فيها أفهام الفطناء وتدحض فى مزالقها أقدام الاذكياء ماأصغى الى كلامهم ولا مال الى مقالتهم ولاقدحت قويات شبههم نار الشك فى قلبه ولا تردد فى الجزم على اعتقاده . وهذا ليس بطريقة النظّار فان المعلوم من أرباب النظر أنهم يجدون الشكوك عند ورود الشبه حتى أن بعض علماء الكلام ارتدوا الى الكفر بعد الاسلام

الوجه الخامس أنه لم ينقل أن نبيئين اختلفا فى شىء قط ولا كذّب أحدهما الآخر ولا غلّطه ولا خطّأه والمعلوم أنهم لو كانوا اكتسبوا ذلك بالنظر لقضت العادة باختلافهم كما اشتد الاختلاف بين الفلاسفة وبين المسلمين ، فان كثيراً من العلماء قد تفردوا بمقالات لم يشاركهم فيها غيرهم واستبدوا باختيارات لم يسبق اليها سواهم ، حتى قيل اجتماع العلماء فى النظريات محال كاجتماعهم على انكار الضروريات ولذلك وُضع قانون الجدال وبعد، فان النظار اختلفوا فى كثير من البديهيات كالتواتر والتحسين والتقبيح وأفعال العباد . ادعى أبو الحسين الضرورة فى تأثيرهم فيها والأكوان أنكرها ، وسمعت أنه ادعى الضرورة فى نفيها ، وأمثال ذلك كثير

الوجه السادس . أنهم لو اشتغلوا بالنظر لنقل الينا نظرهم ، وكيفية

استدلالهم . واذاً لالقنوا أتباعهم والمصدقين بهم الأدلة التى هى أصول الاسلام والتى لولاها لمـا عرفوا الله تعالى ، لـكنهم حرصوا على تعلمهم الشرائع والآداب حتى كيفية قضاء الحاجة ، وأهملوا تعليمهم الدلائل وتعليمهم كيفية حل الشبه ولا شك عند جميع أهل الدّربة فى النظر ان علم المنطق وأمثاله من أوجب الواجبات وأعظم فروض الكفايات على من يدعى أن الدّين متلق بالنظر فى المقدمات والاستنتاج منها ومن ثم رآه المتأخرون كذلك واشتغلوا به عن فروع شرائع الانبياء وعن الاقتداء بالانبياء فى التعبّد وعن طلب المعاش فان الاشتغال بتحقيق علم الكلام دقيقه وجليله ، وجميع أنواعه ممـا انقطع الاذكياء فى تحصيله ، واعترفوا بالقصور عن بلوغ غايته ومنتهاه.هذا الامام الرازى سلطان العلماء وحجة الحكماء وفخر الملة وشعلة الذكاء وفيلسوف الاسلام بعد أن انهج الطرق الفلسفية وسلك المسالك الخفية ينشد فى كتاب النهاية :

العلم للرحمن جل جلاله وسواه فى جهلاته يتغمغم
أين التراب من العلوم وانما يسعى ليعلم أنه لا يعلم

وينشد فيه أيضاً :

نهايات اقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلالُ

ويقول فى وصيته التى مات عليها ولقد اجتربت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم لانه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ويمنع من التعمق فى ايراد المعارضات والمناقضات وما ذلك الا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية وقد

قال بعضهم : وكم فى البرية من عالم قوى الجدال دقيق الكلم
سعى فى العلوم فلما يفد سوى علمه أنه ما علم

فبهذه الامور علمنا أن الانبياء ما أخذوا عقائدهم عن النظر ولا كانوا بحيث يجوز عليهم التواطؤ على الكذب فلم يبق الا انهم علموا ما اداتوا به علما ضروريا ولا يقال انه صلى الله عليه وآله وسلم انما ترك ذلك لانه لم يكن فى زمانه مشبهة لان اليهود كانوا مجاورين له وكانوا أهل فلسفة ولان النصارى وابن الزبعرى ناظروه فلم يأت بشىء من جنس علم الكلام وكذلك لما سئل عن الروح ولا يقال انه أراد به جنسا من الملائكة لان السابق الى الافهام خلافه فهو تأويل بغير دليل كما لا يقال ان الروح جبريل لمثل ذلك ولانه صلى الله عليه وآله وسلم قد أمر أحدنا ان يقول عند أن يكثر سؤال الناس « آمنت بالله ورسله » ثبت ذلك فى الصحيح عن أبى هريرة ، وخبر الواحد يكفى فيما يعامل به المشبهون والمكثرون للسؤال لان معاملتهم ليست من مسائل الاعتقاد وقال تعالى « فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى » وهذا معنى حديث أبى هريرة فصح بحمد الله ووجب العمل به

الوجه الثانى : انه صلى الله عليه وآله وسلم لم يضع كما وضع المتكلمون فيما الحالة فيه واحدة فى معرفة الادلة ووجوه دلالتها . الا ترى انه سئل عن الرؤية فلم يجب بدليل عقلى بالاجماع واكتفى بالسمعى . وأجلى من هذا أن قريشا رموه بان معجزاته من قبيل السحر وادعوا هذا فلم يذكر فى الجواب عليهم الفروق بين المعجز والسحر ولا علم أحدا من الصحابة ذلك ليجيب عليهم مع ان تلك أحوج الاحوال الى ذلك وقال

لما جاءه رسول مسيلمة « آمنت بالله ورسوله » وكذلك قال لابن صياد ولما أخرج ابن صياد ما خبأه له قال اخسأ فلن تعدو قدرك . وثبت فى غير حديث صحيح انه جعل عور الدجال امارة لنا نعرف به أنه ليس بربنا وقال نحن امدامية وطريقهم اليه ان الله تعالى نقله لهم عند كثرة نظرهم فيما يرون من بدائع صنع الله مع قوة غرائز عقولهم ومثل ذلك غير ممتنع بأن الله تعالى يخلق العلم الضرورى لمن يشاء وقد ذهب المؤيد بالله عليه السلام الى هذا فقال يجوز ان يعلم الله بالضرورة بعض الصالحين فكيف بالانبياء والمرسلين

السابع لو كانت هذه الطريقة النظرية هى المعتمدة لتوفرت دواعيهم الى التصنيف فيها والتحقيق والتدريس والتعليق والتلخيص والتدقيق ولاذن لصنف الانبياء فيها التصانيف الجليلة ودرسوا فيها الأزمان الطويلة كالفلاسفة والمتكلمين من علماء الاسلام فانهم لما اعتمدوا هذه الطريقة فى النظر توفرت دواعيهم الى حث اتباعهم عليها والفزع عند كل مشكلة اليها حتى ان المسلمين وقفوا لتحصيل علم المنطق بين أيدى اليهود والفلاسفة وحتى شرحوا كتب علماء هذه الطائفة وحتى حكوا أقوالهم وعظموا فى بعض المسائل أنظارهم وحتى أن الواحد من النظار اذا أدركه أحد من أولاده أو أقاربه أو أصحابه لم يربدا من ان يدعوه الى معرفة هذا الفن ويحثه على اتقان علم النظر ولم لا وهو يعتقد انه لاسلامة من شبه المشبهين الا به ولا طريق الى معرفة الله العالمين الا هو فما بال الأنبياء اهملوا هذا المهم ولم يبالغوا فيه كما بالغ فيه غيرهم وكيف يصح فى العقول انه لا يعرف الصانع إلا بالعرض الحال فى الجسم ثم ينقضى عمر الدنيا منذ كان ابو البشر آدم عليه السلام والانبياء يدعون الخلق الى الدين ولا يفترون فى كل وقت وحين

ثم لا ينقل الينا نقلا متواتراً بل ولا آحادا تصريح من واحد منهم بأن
العرض الذى فى الجسم أمر ثبوتى حادث غير الجسم أما أقوال المتقدمين
من الفلاسفه فى ذلك فتنقل الينا وقد ذكر ذلك السيد الجليل يحي بن
منصور بن العفيف بن المفضل بن الهادى عليه السلام فى قصيدة طويلة
وقد ذكر تدقيق المتكلين وغلوهم ، منها قوله :

ويرون ذلك مذهباً مستعظما	عن طول انظار وحسن تفكر
ونسوا غنا الاسلام قبل حدوثهم	عن كل قول حادث متأخر
ما ظنهم بالمصطفى فى تركه	ما استنبطوه ونهيه للتقرر
أيكون فى دين النبي وصحبه	نقص فكيف به ولما يشعر
أو ليس كان المصطفى بتمامه	وبيانه أولى فلم لم يخبر
ما باله حتى السواك أبانهُ	وقواعد الاسلام لم يتقرر
ان كان رب العرش أكمل دينه	فاعجب لمبطن قوله والمظهر
أو كان فى اجمال احمد غنية	فدع التكلف للزيادة واقصر
ما كان احمد بعد منع كاتما	لهداية كلا ورب المشعر
بل كان ينكر كل قول حادث	حتى الممات فلا تشكّ وتمترى

الى قوله عليه السلام :

يكفيك من جهة العقيدة مسلم	ومن الاضافة احمدى حيدرى

والقصد الاستشهاد بكلامه فى حدوث هذا العلم لا فى تقبيحه وانكاره
وليس القصد بهذا الكلام انكار صحة علم الكلام فان فيه ما يعلم صحته
بالضرورة وانما فيه انكار اعتماد الانبياء ومن عاصرهم من المؤمنين على ادلة
الكلام الملخصة وبيان ان الذى كانوا عليه يكفى المسلم ولا يقال كانوا

يعلمون ذلك جملة لانه لا يصح ذلك لما مضى فخذه من موضعه (الوجه الثامن) لو كان ذلك هو طريق الانبياء الى معرفة الله لكانت الكتب التى جاؤا بها كالقرآن الكريم وغيره مشحونة بذكر الاعراض والدليل على انها أمور ثبوتية حقيقية لا خيالية اضافية وقول المتكلفين ان الله قد أشار الى الدعاوى الاربع بحكايته لقول ابراهيم «انى لا أحب الآفلين» ضعيف لانا نقول فلم اكتفى بهذا المفهوم الضعيف فى دليل اثبات الصانع والعادة تقضى بأن الله تعالى يكثر من التصريح بالدليل الدال عليه سبحانه . مثلما ان ملكوت السموات والارض وأقاصيص الانبياء لما كانا دليلين عليه تعالى أكثر من التصريح بالحث على التدبر لما فيهما من الآيات وانما قلنا انه ضعيف بالنظر الى الاعتماد على دلالة الأكوان لانه عليه السلام رأى النجم على حالة واحدة ولم يره ساكنا وأيضاً قد رآه ينتقل فى السماء من جهة المشرق الى جهة المغرب فما الفرق بين ذلك التنقل وبين التنقل من السماء الى غير السماء وأيضاً قد كان يعلم حين رأى القمر بازغا انه قبل طلوعه آفلاً فلم يكن أفوله الثانى بادل على عدم الهيته من أفوله الأول وأيضاً فلو استدلّ بالاعراض على نحو استدلال المتكلمين لما قال هذا ربى أولا ولما فرق بين النجم والشمس والقمر ولكان دليله على أن النجم محدث يدل بعينه على ان كل جسم محدث سواء كان مستدلا لنفسه أو ملزما لغيره لانه يكون قد أقام الحجة على الخصم بحدوث الاجسام حين ابطل ربوبية النجم فلم أعاد الاستدلال عند رؤية القمر ثم أعاده عند رؤية الشمس وأيضاً ليس هذا دليلا يختص بالشمس بل الاستدلال بالنظر الى الشمس والى أى جسم على سواء . فما خص النجم ثم القمر ثم الشمس

الا لِلَطيفة أخرى

واعلم أن ظاهر كلام ابراهيم عليه السلام هنا لايقضى بانه استدل على الله بان الجسم لايخلو من الا كوان الثبوتية ولا يتقدمها وانها محدثة وأن مالم يخل من المحدث ولم يتقدمه فهو محدث مثله ولا منصف يقول بأن هذا ظاهره وأيضا فقد كان علِم أنه محدث لانه يستحيل أن يطلب معرفة خالقه ومحدثه وهو يشك هل هو محدث بل قد كان يعرف أن له محدثا بدليل قوله « لئن لم يهدنى ربى » لكنه لم يكن قد اهتدى الى أنه ليس بجسم فاذا ثبت هذا ثبت أنه لم يعرف حدوث نفسه بدليل الاعراض اذن يعلم أن كل جسم من القمر وغيره محدث . فان قيل فعلى ماتحملونه ؟ قلنا نحمله على أن هذا كان منه فى أول أحوال تكليفه فى مهلة النظر التى لا حرج على من أخطأ فيها وانه تحير فى ربه من هو ورأى أشرف الجهات جهة السماء العلوية وأشرف ما فيها هذه الجواهر المضيّة فقال فى نفسه أنظر هل يجوز أن يكون أحد هذه الاشياء ربك وكان قوله « هذا ربى» ليس قطعاً حصل بعد النظر ، لكن فرض وتقدير ، فبات وظل يتفكر ويتحير فى قرائن الاحوال ، وهو وان كان يعترض عليه فى النظر بأحد الوجوه المذكورة المقدمة فانه يجوز عليه الخطأ فى مثل ذلك اذا لم يكن استدل بدليل الا كوان فان الخطأ يجوز على الأنبياء عليهم السلام فى غير التبليغ بالاجماع بل الصغائر تجوز عليهم عندنا فتأمل ذلك ولم يزل ينظر حتى أداه نظره الى أن لهذه الجواهر المضيّة خالقاً مثلما قد كان أداه الى أن له خالقاً على ما تقدمت اليه الاشارة . فان قيل فهل يجوز أن يكون قد عرف أنها ليست أرباباً وانما قال ذلك محتجاً على الكفار وكان قوله « هذا

ربى » من قبيل تسليم الجدل وهو من طريق المنصفين حتى يعقب التسليم بما يمنع منه . قلنا ذلك جائز ولكن لا يحصل به غرض وفيه بعد. أما أنه لا يحصل به غرض لمثبتى الأكوان ، فلما تقدم أن الحجة كانت تلزم خصمه حين أبطل ربوبية النجم فلم أعادها فى القمر والشمس وهى واحدة ألا ترى أنه لا يحسن أن يحتج على كل نجم بذلك ولا يحسن أن يحتج الواحد على كل جسم بذلك أعنى كلما وجد جسما أورد الدعاوى الاربع محتجاً على حدوثه . وأما أن فيه بعدًا فلوجوه : أحدها أنه خلاف الظاهر ولا موجب للتأويل فان قلت الموجب له أن لا تنسبه الى الجهل بالله . قلت هو جائز عندنا بل واجب عند أبى هاشم على كل نبي وملك فى مهلة النظر مع أنه عليه السلام فى تلك الحال لم يثبت أنه قد كان نبياً فجاز عليه ما لم يكن من المنفرات من المعاصى وكون الجهل بالله فى حال من الاحوال كفراً أو كبيرة انما يثبت بالشرع فمن أين أنه كان كذلك فى حقه عليه السلام . الثانى أنه حين قال فى القمر هذا ربى تأخر عن الجواب الى أن غرب القمر فى آخر الليل ثم فعل ذلك فى الشمس فتأخر فى الجواب من طلوعها الى غروبها وذلك يبعد من المحتج على الخصم لوجهين : أحدهما أن الخصم لا ينتظره فى المجلس يتطلب الجواب ليلة ويوما . فان قلت الخصم وان لم ينتظره لكنه اذا أفل القمر قصد الى ذلك الذى كان يحتج عليه الى حيث كان فألزمه حدوث القمر . قلت ليس غرض المحتج أن يلزم الخصم الا فى تلك الحال لا سيما اذا كان الدليل حاضراً معه فى الحال فانه لا يؤخره واذا قلنا ان دليله هو دليل الأكوان فهو حاضر فى تلك الحال أفل القمر أو لم يأفل .(الوجه الثانى) أن المحتج على الغير لا يجوز أن يسلم

للغير ما يدعي الا ويبين في تلك الحال أن تسليمه تسليم جدل وتعقبة من غير تراخ بابطال كلامه لانه لو جاز ذلك يوما لجاز شهراً أو سنة او العمر كله فان قلت يجوز التأخر اذا كان الدليل مع التأخر أوضح . قلت اذا كان دليله دليل الأكوان لم يكن بعد الافول أوضح منه قبله وأيضاً فكان يمكنه أن يقول من المعلوم للجميع أنه يأفل وهذا يكفيه لكنه لم يكن يعلم ذلك على ماسيأتى . (الوجه الثالث) مما يدل على بعد أن ذلك منه عليه السلام على وجه الاحتجاج على الغير أنه قال عقيب أفول القمر « لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين » قال الله تعالى « فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى » الآية وهذا لا يقوله فى مثل هذا الحال الا المتحير . (الوجه الرابع) قوله فى الشمس « هذا ربى هذا أكبر » فان قوله هذا أكبر لا يليق بحالة المناظر . (الوجه الخامس) أن الافول فى اللغة ليس باسم لاحد الاكوان لكنه قد يكون مصاحباً لها وقد لا يكون مصاحباً لشىء منها كما لو غطت سحابة على الشمس، وابراهيم عليه السلام انما جعل العلة الافول لا ما يصحبه من الحركة ولو أراد ذلك لذكره وأيضاً فالحركة من غير سكون لا تدل . (الوجه السادس) أنه يجب أن يكون نزاعه إما لواحد يعبد هذه الثلاثة النجم والقمر والشمس أو لاثنين أو لثلاثة يعبد كل واحد منهم واحداً من هذه الكواكب . والقول بهذا من غير نقل بعيد وانما الذى فى القرآن أنها كانت تعبد فى زمانه الاصنام كما قال تعالى فى قصة كسره عليه السلام لاصنامهم (الوجه السابع) أنه قال هذا ربى ولم يقل للخصم هذا ربك ولا قال هذا ربنا ولا هذا رب وقلّ ما يتفق مثل هذا من منكر لربوبية شىء قاطع ببطلانها وان كان جائزاً . (الوجه الثامن) قوله تعالى « فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا

ربى » فهذا يشعر بأن علة رؤيته للكوكب جنون الليل عليه وعلة قوله هذا ربى رؤية الكوكب كما تقول فلما دخلت دار الامارة رأيت رجلا وسيما قلت هذا الامير ولو كان كما قالوا لقال فلما قيل له النجم ربك قال هذا ربى. (الوجه التاسع) ان الآية تدل على أنه لم يكن قد رأى النجوم ولا القمر والشمس لانه لو كان قد عرفهن لما كان لترتيب ابطال ربوبية النجم على ابطال ربوبية القمر ، وابطال ربوبية القمر على ابطال ربوبية الشمس معنى رأساً ولا كان لانتظاره لافولها معنى لان أفولها فيما مضى من الزمان قد كان عالما به فكان علمه به مغنياً له فى الاحتجاج عن انتظار الافول المستقبل، ألا ترى أن الواحد منا لو أراد أن يحتج على صاحبه بغروب الشمس لم يحتج ينتظرها ويرقبها حتى تغرب ثم يحتج وهى غاربة. فاذا ثبت أنه لم يكن قد رأى هذه الامور دل هذا على أن كلامه هنا كان منه فى أول نظره ومبدأ تكليفه وحينئذ لم يكن قد تصدى لمناظرة أهل الكفر بل ما كانوا قد عرفوا شخصه ومن البعيد أن يتصدى أهل الكفر للرد على مسلم قبل أن يشهر اسلامه ويشتد عليهم جداله.
فان قيل : فلمن قال بعد أفول الشمس « انى برىء مما تشركون » ؟ أليس هذا يدل انه كان عنده من يخاصمه ؟ قلت : لا يدل على ذلك بل يحتمل انه قال ذلك لبعض من خاصمه بعد ذلك الموقف بمدة وبعد ان اشتهر عليه السلام بالمخالفة لهم سلمنا انه قاله فى تلك الحال لكن يحتمل انه حضره فى حال استدلاله أحد اما أمه وأبوه معاً أو غيرهما من الناس فانكر عليه ما رآه من الاعراض عن عبادة الاصنام فقال له ذلك عقيب تناهى نظره الذى أداه الى أن لجميع السموات والارض وما فيهن

خالقاً واجداً (عاشرها) قوله تعالى «وكذلك نُري ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا» الآية فدلت الآية على ان الله أراه الملكوت ليوقن بالله ويستدل عليه لا ليناظر ويجادل فان قيل ان هذه الواو التى فى قوله «وليكون من الموقنين» واو عطف والمعطوف عليه محذوف والتقدير ليحتج على القرين وليكون من الموقنين قلنا لا نسلم انه يجب فى الواو انها واو عطف لان حذف المعطوف عليه لا يجوز الا بعد حروف الجواب نعم وبلى واجل وجير وان كقول ابن الزبير ان وراكبها وكقولك لمن قال ماجاء زيد بلى وعمرو لان ذلك لا يجوز الا مع الاضمار والاضمار مجاز والمجاز خلاف الاصل بل نقول يحتمل انها زائدة مؤكدة فزيادات الحروف فى لغة العرب كثيرة مثل قوله «فلما اسلما وتله للجبين» وقوله تعالى «حتى اذا جاؤوها وفتحت أبوابها» ونظائر ذلك سلمنا انها عاطفة لكن المعطوف عليه لا يقدر فيكون مجملا انما قلنا انه لا يقدر لانا ان قدرنا جميع المحتملات نحو أن نقول ليعتبر لينظر ليستدل ليجادل ليعلم ونحو ذلك مما لا يكاد ينحصر فاحدها يغنى تقديره عن الآخر وتقدير مضمر مستغنى عنه لا يجوز اذ لا يجوز الاضمار الا لضرورة ولا ضرورة بنا على اضمار الجميع ، وان أضمرنا واحدا منها معينا كان ذلك تحكما فلزم الاجمال فى المضمر سلمنا انها ليست مجملة لكن لا يجوز ان يكون المضمر الا مما يدل عليه سياق الكلام أو معنى الخطاب أو لفظه ألا ترى انه لا ينبغى أن يكون المضمر ليشكر الله على نعمة السمع وليكون من الموقنين لما لم يكن فى الآية ما يشعر بذلك وليس فى اللفظ ولا فى المعنى ما يدل على انه أرى الملكوت ليحتج بل ليوقن فوجب أن يكون

المقدر من جنس ذلك الذي دل عليه ظاهر الآية فنقول يحتمل ان يكون المحذوف مؤخرا تقديره وليكون من الموقنين أريناه الملكوت ويحتمل ان يكون مقدما تقديره ليعتبر وليكون من الموقنين سلمنا أن ذلك التقدير الذي قدرتموه جائز تقديره ولكن ليس تقديره ينافي غرضنا لان المعنى للآية يكون انا نري ابراهيم الملكوت لامرين أحدهما أن يجادل الكفار والثاني أن يكون من الموقنين واذا كان ذلك معناها دل على مرادنا لان الاراءة للملكوت سبب في الاحتجاج واليقين وهما مسببان عنها والمسبب عنها لا يتقدم السبب في الظاهر وان جاز ذلك على تأويل لكن لا يجوز العدول الى التأويل من غير موجب ، فدل ذلك ظاهراً لا قطعاً على ان ابراهيم حالما أراه الله الملكوت ما قد كان موقنا وذلك في مهلة النظر وأول أحوال التكليف. وذلك يدل على ما أشرنا اليه من انه كان ناظراً لنفسه لا مجادلا لغيره اذ لا يصح منه أن يحتج على غيره قبل أن يعرف . فان قيل فانا اذا قدرنا ان المعطوف عليه ليحتج على أهل الكفر وليكون من الموقنين كان ظاهر الآية يقتضي ان احتجاجه عليهم قبل يقينه فيجب تأويل اليقين بان معناه الزيادة في اليقين مجازا . قلنا لا نسلم لكم ان ظاهر الآية يقتضي تقدم الاحتجاج منه على يقينه لان ذلك ليس يلزم الا لو كانت الواو للترتيب أو للمعية أما اذا كانت للجمع فقط كما هو قول البصريين وجمهور أئمة النقل فلا يلزم ما ذكرتم وتقدير الكلام في الواو مستوفى في النحو والاصول (حادي عشرها) قوله تعالى في آخر حكايته لاستدلال ابراهيم عليه السلام على حدوث النجم والقمر والشمس «وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان» وموضع الاحتجاج من الآية انه عطف على هذه القصة قصة أخرى.

معناها ان ابراهيم تَحاجّ هو وقومه فلو كانت هذه القصة الاولى محاجة بين ابراهيم وبين قومه لما حسن بعد الفراغ منها ان يقال وحاجه قومه كما لا يحسن ان يقول اختصم زيد وقومه فى قدم العالم فقال ان ما فيه من الصنعة تدل على حدوثه واختصم قوم زيد هم وزيد فى حدوث العالم فان قلت لعل المعنى فى الآية انه احتج عليهم بذلك الاحتجاج وحاجوه أى وردوا عليه حجته وما قبلوها . قلت هو يبعد لوجوه : أحدها انه قد فصل بين احتجاجه ذلك وبين قوله وحاجه قومه بفصل طويل. الثانى ان ظاهر الآية يقتضى انهم ابتدؤه بالمحاجة لانه ذكر جوابه عليهم وهو قوله اتحاجونى فى الله . والظاهر فى احتجاجه الأول على حدوث النجم والقمر والشمس انه ليس بمحاجة فلا يخالف الظاهرين فى الآيتين لغير موجب . الثالث ان الواو تقتضى ان القصة الثانيه غير الاولى فلو كانت هى الأولى لجاءت اما بغير واو نحو ان تقول قالوا كذا مثل ما حكى عنه فى جوابه عليهم قال اتحاجونى ولم يقل وقال اتحاجونى كما ذكره السكاكى فى محاجة موسى عليه السلام وفرعون وكما ذكر ذلك مقرر فى علم المعانى فان كان لابد من حرف عطف يلائم بين الكلامين لانه لم يتقدم مايدل على أن أول الكلام موجه اليهم حتى يؤتى بجوابهم بغير عاطف فيكون حرف العطف هو الفاء لانها اللائقة بتثل ذلك اذ فيها معنى السبب وان محاجتهم له مسببة عن احتجاجه وجوابا عليه فنقول فحاج ابراهيم قومه . ألا ترى انك اذا قلت انى اجتمعت أنا ورجل كافر فقلت ان لهذا العالم صانعا وكان ذلك الكافر قد انكر قولك وقال ليس للعالم صانع على جهة الرد عليك لم يحسن ان تقول وقال انه ليس للعالم صانع بل تقول فقال انه ليس للعالم صانع وان

كان الاتيان بالواو جائزا على جهة الفرض والتقدير لكن الفاء أوقع وتأويل القرآن على ما يلائم الافصح أولى من تأويله على ما يلائم الفصيح. فان قيل فاى أمر فى الافول اعتقده دليلا على بطلان ربوبية النجم والقمر والشمس على غير طريقة المتكلمين فى الاكوان؟ قلت: لنا أن نجيب بأنه قد أشار الى أن الافول دليل بطلان الربوبية مثل ما أن المخلوقات دليل على الله تعالى لكنه لم يبين ماوجه دلالة الافول فلم يلزمنا ذكر ذلك لأنه ليس مما نطق به القرآن ولا مما نعلمه لأن من الجائز أن وجه الدلالة أمر لم يخطر على قلوبنا. وهذا ليس مما يلزم أن يعرفه الراسخون على القول بأنهم يعلمون كل معانى القرآن لأن هذا ليس من معانى القرآن لان معنى القرآن ما أخذ من لفظه. ووجه الدلالة الذى أراده عليه السلام ليس مما يؤخذ من لفظ القرآن وأكثر ما فى الباب أن يعرف الناظر وجهاً فى الدلالة على ذلك فمن الجائز أن يقصد عليه السلام وجهاً آخر اذ لا مانع أن يدل الدليل من وجهين. تلخيصه أنا ان طلبنا وجها فلم نجد فعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود وان وجدنا وجهاً فلا دليل على أنه لا وجه سواه الا بطريقة الحصر والسبر وهى باطلة لانها استدلال على عدم الوجود بعدم الوجدان وصحته غير معلومة لا بالضرورة ولا بالدلالة بل خلافه معلوم بالتجربة الضرورية فكم من طالب دليلا أو جوابا لا يجده فى يومه ثم يجده فى غده، وما جاز فى اليوم جاز فى العمر. واما بطريقة النفى والاثبات ولا سبيل اليها. فان قال قائل انى طلبت فلم أجد وجهاً أو طلبت فلم أجد الا وجهاً واحداً. قلنا عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود، وهذا هو الوجه فى الجواب. وأما قول المتكلمين ان قوله

تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » وارد على طريقة أهل الكلام في نفي الثاني فليس كذلك وبيان ما ذكرنا أن المتكلمين بنوا دليلهم على مقدمتين احداهما أنه يلزم من تجويز الالهين صحة التنازع بينهما لا وقوع التنازع والآية مصرحة بأنه ينتفى الثاني بدليل وقوع الفساد لا بدليل صحته وهم يقولون بدليل صحته لا بدليل وقوعه فأين احدى الطريقين من الاخرى . انما قلنا ان الدليل في الآية هو وقوع الفساد لقوله تعالى « لفسدتا » ولقوله «ولعلا بعضهم على بعض » ولقوله تعالى « اذاً لابتغوا الى ذى العرش سبيلا » . المقدمة الثانية أن المتكلمين قالوا فمن غلب فليس بإله وان تمانعوا كلهم فكلهم ليسوا بآلهة . وقوله تعالى « ولعلا بعضهم على بعض » ليس من طريقتهم في شيء لانه قطع بأنا متى قدّرنا مع الله آلهة علا بعضهم على بعض والمتكلمون يقولون لو كان مع الله آلهة لم يخلُ الحال اما أن يعلو بعضهم على بعض أو لا يعلو بعضهم على بعض . فان قلت القرآن جاء على الايجاز قلت حيث لا يكون مخلا أما هـذا فانه مخل لوكان المراد به الاستدلال على طريقة علماء الكلام ولعل هذه الآيات وردت على اعتقاد المشركين لجواز الارباب المتغالبين الذين بعضهم أغلب لا على تقدير الهين أو أكثر كل منهما قادر على كل شيء مستحيل عجزه عما أراد فتكون مقصورة على ما نزلت بسببه من زعم المشركين وجهلهم واما نفي الثاني على اعتقاد المتكلفين فتكون الحجة فيه السمع الضرورى وهو هنا صحيح بالاجماع . وكذلك قوله تعالى « وإذاً لابتغوا الى ذى العرش سبيلا » ليس بوارد على طريقة المتكلمين لان معنى الآية أن ابتغاءهم الى ذى العرش سبيلا دليل على انتفائهم لأن وجودهم يستلزم

وجود الانتفاء والمتكلمون لا يقولون بذلك انما يقولون ان انتفاء صحة ابتغائهم الى الله هي الدليل لان وجودهم يستلزم صحة للابتغاء فاذا ثبت أنه ليس فى القرآن ولا سائر الكتب المنزلة ولا كلام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولا كلام غيره من الرسل الا وله شيء صريح على منهج أهل النظر ثبت أن النظر على هذا الوجه ما كان مفزعهم أبداً اذن لقضت العادة بخوضهم فيه وعنايتهم به وحثهم عليه وكتابتهم له . فان قيل فهل تنكرون النظر ؟ قلنا لا فان قيل ففيم يكون النظر ؟ قلت فى أمرين اما فى المخلوقات البديعة الصنعة اللطيفة الحكمة من سماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج وحيوانات محكمات ذوات آلات وأدوات منها آلات النظر والشم والسمع والطعم كالاذن والعين والانف والفم الى غير ذلك مما تقدمت اليه الاشارة فانك عندما تنظر الى ذلك تعلم ضرورة عقيب النظر أن لها صانعاً عالماً حكيما قادراً ولما كانت هذه طريقة موصلة الى العلم امتلأ القرآن منها فان الآيات الشرعية التى فى القرآن اقل من ستمائة آية وبقية الآيات فى هذا القبيل فى الترغيب والترهيب وفى قصص الانبياء وأخبارهم وقرائن أحوالهم الدالة على صدقهم وهو الامر الثانى مما ينظر فيه وليت شعرى على كلام المتكلمين لم خص الله الحث على النظر فى السماوات ونحوها وما الفرق فى دلالة الاعراض بين السماء وذرة من تراب ، وشهرة الحث على النظر فى هذا الامر ظاهر لا يحتاج الى ايراد شيء مما فى القرآن منه لكثرته وشهرته . الامر الثانى مما يفيد النظر فيه العلم هو قصص الانبياء وأحوالهم ، وكذلك لما كان طريقاً يفيد العلم ويشرح الصدر ويثلج الفؤاد ، أكثر الله من ذكر أحاديثهم فى الكتاب العزيز .

والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » وبقوله تعالى « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » فهذا كله دليل واضح على أن النظر فى أحوالهم يفيد العلم

واعلم أن توسيع دائرة الاسئلة يؤدى الى الخوض فى الاحتجاج على الضروريات بالظنيات ، فان طائفة الأشعرية على كثرتهم قد أنكروا التحسين والتقبيح وهو الضرورى ، وطائفة السوفسطائية قد أنكروا المشاهدات ، وطائفة السمنية قد أنكروا المتواترات ، وأبو الحسين وغيره قد أنكر كون العلم بالمتواترات ضروريا ، والناس بحر ليس له ساحل ومن رام الاجماع على رأيه لم يحصل على طائل ، فلو كان الزمان يسمح بالاجماع ما كان بين القرابة والصحابة نزاع ، ولا خالف الحسن أخوه الحسين ، ولا سماه أصحابه مذل رقاب المؤمنين ، ولا اختلف الوصى وابن عباس ، ولا اشتهرت المنازعة بين زيد وعبد الله الكامل فى الناس ، ولا اختلف الاخوان الحسن وأبو هاشم ، ولا افترق الشيخان أبو على وابنه أبو هاشم فاقطع حبائل الرجاء لألفة الألفاء ، وتأس بقول بعض الظرفاء :

إن لم أجد لى فى الأنام مناطقاً ... يرضى الصواب ويكره التقييدا

ناطقت أطراف اليراع فساقطت ... درراً تروق فرائداً وعقودا

وتسل اذا خالفك الاصحاب والقرباء ، متعزيا بقول بعض الأدباء :

ان اشتغلت بعلم الناس احفظه ... دهرى فذلك شىء لا يوانينى

وان رجعت الى علمى لأحرسه ... فطالب العلم يمضى ليس يأتينى

فنسأل الله التوفيق والعصمة . وأن يجعلنا من أهل الحق من هذه الأمة ، انه على ذلك قدير وبالاجابة جدير . والحمد لله أولا وآخراً وظاهر

وباطنًا وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

قال المؤلف رحمه الله : فرغت من كتابة هذا فى اليوم الرابع أو الخامس من شهر رجب سنة « ٨٠١ » احدى وثمانمائة هجرية على صاحبها وعلى اله أفضل الصلاة والسلام

تم كتاب البرهان . بحمد الله العزيز الرحمن

والحمد الله على جزيل فضله ونواله والصلاة والسلام على سـيدنا محمد وعلى الطاهرين من آله . وحسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير



فهرس

البرهان القاطع

